

العدد ١٠٩

١٩٧٩-١٩٧٤

فاجات هجمة الأصوليين

الكثير من العلمانيين . فقد كانوا قد افترضوا أن
الدين لن يعود لاعباً أساسياً في الحقل السياسى مرة
أخرى ؛ إلا أنه حدث انفجار قتالى للعقيدة خلال
أواخر السبعينيات . فراقب العالم مندهشاً فى عامى
١٩٧٨ و ١٩٧٩ كيف أطاح أحد آيات الله الإيرانيين
غير المعروفين بنظام الشاه محمد رضا بهلوى الذى
كان قد بدا للغرب من أكثر النظم تقدمية واستقراراً
فى الشرق الأوسط .

فاجأت هجمة الأصوليين الكثير من العلمانيين. فقد كانوا قد افترضوا أن الدين لن وفي نفس الوقت، وبينما كانت الحكومات الغربية تهلل مؤيدة لمبادرة الرئيس المصرى للسلام واعترافه بدولة إسرائيل وتقربه من الغرب، لاحظ المراقبون توجه الشباب المصرى نحو الدين، إذ كانوا يرتدون أزياء إسلامية، وينذون الحريات التى أتت بها الحداثة، على حين تورط الكثيرون منهم فى محاولات للسيطرة على الجامعات. وفى الولايات المتحدة أسس جيرى فولويل جماعة «الغالبية الأخلاقية» عام ١٩٧٩، وحث الأصوليين البروتستانت على الاشتغال بالعمل السياسى، وتحدى الدولة، والتشريع الفدرالى وأجندته «الإنسانية العلمانية».

وبدا الانفجار المفاجئ للدين صادماً وشريراً للمؤسسة العلمانية. فبدلاً من احتضان التقليديين الراديكاليين لإحدى الأيديولوجيات الحديثة التى برهنت على فاعليتها، كانوا يستشهدون بالكتب المقدسة والقرانين والمبادئ التى كانت غريبة بالفعل على خطاب القرن العشرين السياسى. وبدا نجاحهم المبذنى غير مفهوم:

فقد كان من المستحيل إدارة دولة حديثة على هذه الأسس. وبدا الأصوليون وقد انشغلوا بعودة ارجالية إلى الماضي. هذا بالإضافة إلى أن ما ألهمته تلك الأحداث من حماس ودعم كان تحدياً مهيناً لهم. وأجبر هؤلاء الأمريكيون والأوروبيون الذين اعتقدوا بانتهاء زمن الدين على أن يروا، ليس فقط أن العقائد القديمة باستطاعتها إلهام الولاء والحماس، بل أيضاً أن الملايين من اليهود والمسيحيين والمسلمين المتزمين يفضون الثقافة العلمانية التي يزعمون هم بها.

وحقاً، وكما رأينا، فلم يكن انبعاث الأصولية مفاجئاً أو باعشاً على الدهشة. فلعلقود عدة، كان التدينون الأكثر محافظة، وقد شعروا لأسباب متنوعة، بالامتهان والقمع والاضطهاد من قبل حكوماتهم العلمانية، في حالة من الغليان والاستياء. وانسحب الكثيرون منهم من المجتمع الحديث لينشئوا محميات مقدسة للعقيدة الخالصة. ونتيجة ليقينهم أن هناك خطراً من إبادتهم من قبل الأنظمة التي التزمت بالقضاء عليهم، فقد شعروا أنهم مستعدون للمعركة من موقف دفاعي.

وكانوا قد طوروا أيديولوجيات لتعبئة المؤمنين لصراع من أجل البقاء. كما أنهم، وهم محاطون بقوى اجتماعية معادية للدين أو غير مهتمة به، قد طوروا عقلية حصارية يمكنها بسهولة أن تتحول إلى الهجوم. وبحلول منتصف السبعينيات كان الوقت مُهيأ. فقد شعر الجميع بقوتهم واعتقدوا أن ثمة مأزقاً وأنهم بصدد لحظة تاريخية فريدة. وكان الجميع مصممين على تغيير العالم قبل أن يغيرهم. ورأوا أن التاريخ قد اتخذ منعطفاً خطيراً، انحرف معه كل شيء. وكانوا يحيون في مجتمعات همتت أو استبعدت الإله، وأصبحوا متاهين لإعادة القداة إلى العالم بحيث يصبح على العلمانيين نبذ اعتمادهم على الذات المتكبرة التي جعلت من الإنسان معيار كل شيء، والاعتراف بسيادة المقدس.

وكان المراقبون في غالبيتهم يدركون رد الفعل الدينى هذا. فقد كانت مختلف المجتمعات قد أصبحت مستقطبة لدرجة عمد معها الليبراليون فى الولايات المتحدة، والمثغرينون فى بلد مثل إيران إلى الإقلال من شأن الثقافة الدينية المضادة التى ظلت تنمو على مر السنين. وكانوا مسخطين إذ تصوروا أن هذا التدين العدوانى ينتمى إلى العالم القديم. فقد كانت هناك أشكال حديثة للعقيدة، وكانت فى غالبيتها، مبتكرة إلى حد بعيد، ومتأبة للتخفف من حمولة قرون من التقاليد. ففى نفس الوقت الذى رفض أصوليو الديانات الثلاث الحدائى، تأثروا بالأفكار والأساليب الحدائى. إلا أنه كان عليهم تعلم الكثير. ومثلت الهجمات المبكرة أيام مجد الأصولية، إلا أننا، وكما سنرى، فمن الصعوبة البالغة لحرمة ذات إلهام دينى أن تحتفظ بنقائنها بمجرد أن تلج إلى عالم السياسة الحديثة التعددى العلمانى البرجماتى. فقد تصبح الثورة على الطغيان مستبدة، وحملة القضاء على التقسيم والتمييز الذى تمارسه الحدائى من أجل إقامة دولة اندماجية كلية، حملة شمولية. وبرهنت ترجمة رؤى الأصوليين الأسطورية والرؤىوية والروحانية الى منطق سياسى على أنها عمل خطير. إلا أن الأصوليين شعروا فى البدايه. يتم اجتاحتها الجميع أمامهم بعد عقود من الامتھان والقمع، وأنه سيتم لهم هزيمة العالم فعلاً من أجل الإله.

وكانت الثورة الإيرانية هى الحدث الأول الذى جذب انتباه العالم إلى إمكانيات

الأصولية رغم أنها لم تكن الحركة الأولى التي تحقق أول مغامرة ناجحة في عالم السياسة. فلقد رأينا كيف أصبح أتباع كوك في إسرائيل مقتنعين بعد حرب يوم كيبور عام ١٩٧٣ أن الشعب اليهودي قد دخل معركة ضد قوى الشر. فقد كانت الحرب نذيراً وكان الخلاص في سبيله للتحقق، إلا أن الحكومة كانت مصممة على الإغلاء من شأن سياسات تعيق بها العملية المشيخانية. وراوا أنهم مجبرون على الأخذ بزمام المبادرة. وكان مما أثار دهشتهم أن وجدوا لهم حلفاء علمانيين كانوا يشاركونهم رؤية الحاخام كوك؛ لكنهم في واقع الأمر كانوا مصممين على التمسك بكل بوصة من الأرض المحتلة. وأيضاً كان الذين هم من غير أتباع كوك، أو من اليهود غير المتزمين، مثل رئيس أركان الجيش رفائيل إيتان، والفيزيائي النووي المتطرف في قوميته يوفال نعيمان، على استعداد للعمل مع الصهاينة المتدينين كي يضمّنوا بقاء الأراضي المحتلة في قبضة إسرائيل. وفي فبراير عام ١٩٧٤ كوّن مجموعة من الحاخامات، والعلمانيين الشباب من الصقور، وأتباع كوك، وآخرين من الصهاينة الذين خدموا في جيش الدفاع وحاربوا من أجل إسرائيل جماعة أسموها «جوش إيمونيم Gush Emunim» أو «كتلة المؤمنين».

ثم أعقبوا هذا بصياغة ورقة تبين موقفهم والخطوط الرئيسية لأهدافهم. فلن تصبح «الجوش» حزباً سياسياً يتنافس على مقاعد الكنيست، بل مجموعة ضغط تعمل على تحقيق اليقظة العظمى للشعب اليهودي لتنفيذ الرؤية الصهيونية تنفيذاً كاملاً وهم يدركون أن لهذه الرؤية أصلاً في إرث إسرائيل اليهودي، وأن هدفها «هو الخلاص الكامل لإسرائيل والعالم أجمع». فعلى حين أزاح الصهاينة الأوائل الدين جانباً، أصر أعضاء الجوش على تجذير حركتهم في الديانة اليهودية. وأيضاً، فعلى حين كان العلمانيون من أعضاء الجوش يفسرون الخلاص تفسيراً سياسياً فضفاضاً، اقتنع النشطاء المتدينون الذين تبنا رؤية كوك الكلية أن الخلاص المشيخاني قد بدأ بالفعل، وأنه لن يكون هناك سلام في بقية أنحاء العالم إن لم يستوطن الشعب اليهودي «أرض إسرائيل» بكاملها. ومثلت الجوش، منذ البداية، تحدياً لإسرائيل العلمانية. وكانت ورقة تحديد الموقف قد أكدت على فشل الصهيونية القديمة. فقالت الورقة إنه على الرغم من أن اليهود يخوضون حرباً شرسة للبقاء في أرضهم:

«فنحن نشهد سيرورة ذواء وتراجع عن تحقيق المثال الصهيونى بالقول أو بالفعل . وهناك أربعة عوامل مسئولة عن هذا المآزق، وهى الإرهاق العقلى والإحباط الناجم عن الصراع الممتد وغياب التحدى وتغليب الأهداف الأنانية ووهن الإيمان لدى اليهود» .

وكان السبب الأخير، أى إضعاف الدين، هو العامل الحاسم فى رأى أعضاء الجوش المتدينين . فليس للصهيونية معنى إن انفصلت عن اليهودية . ففى نفس الوقت الذى سعى فيه أتباع كوك إلى الاستيلاء على الأراضى المحتلة من العرب، كانوا أيضاً يخوضون حرباً ضد إسرائيل العلمانية . وكانوا مصممين على إحلال لغة التوراة محل الخطاب الاشتراكى والقومى القديم . فعلى حين سعى صهيانة العمل إلى تطبيع الحياة اليهودية وجعل اليهود «مثل سائر الأمم الأخرى»، كانت جماعة الجوش إيمونيم تؤكد على «تفرد» شعب إسرائيل، فاليهود مختلفون جوهرياً عن كل الأمم الأخرى ولا يخضعون لنفس القواعد لأن الرب اصطفاهم . فقد أوضحت التوراة أن لهم مكانة متفردة بصفتهم شعباً «مقدساً» . وعلى حين حاولت صهيونية العمل إدماج الليبرالية الإنسانية الغربية الحديثة فى الحياة الإسرائيلية يعتقد أعضاء الجوش أن اليهودية والغرب متضادان . ولذا رأى أتباع كوك أن الصهيونية العلمانية لن تكون أبداً فاعلة . وكانت مهمتهم إصلاح الصهيونية من أجل الدين، وإصلاح أخطاء الماضى والتاريخ مرة أخرى .

وقد بينت حرب يوم كيبور (عيد الغفران) ، التى اقترنت من الكارثة أن الفعل الآتى للإنسراع بسيرورة الخلاص التى عوقتها الصهيونية العلمانية الزائفة، أمر جوهرى . ورغم أن تطور جماعة الجوش استغرق عاماً ليصل إلى الكمال، إلا أنها أمدت أعضاءها بأسلوب حياة كامل . فكان هناك أسلوب للزى، والموسيقى، وتزيين المنازل، والكتب التى يقرأونها، واختيار أسماء الأطفال، وحتى أسلوب خاص للحديث . وأوجدت الجوش، على مر السنين، ثقافة مضادة مكنت أعضاءها من الانسحاب من إسرائيل العلمانية بالأسلوب الأصولى المعتاد الذى كُرس له على مر الزمن . بيد أنه الأسلوب الذى اتبعه أعضاء الجوش للتباهى بتدينهم واتباعهم التوراة تميز بالعدوانية . ففى السنوات الأولى للدولة كان الإسرائيليون العلمانيون

يستنهزون باليهود الذين يرتدون قلنسوة الرأس التقليدية، ثم أصبح هؤلاء المتدينون النشطاء يتباهون بتلك القلنسوات المشغولة بالإبر، وما لبثت أن صارت رمزاً لأناقة المتدينين الراديكاليين ونظرت كواحد الجوش إلى نفسها على أنها أكثر يهودية حقاً وصهيونية من أعضاء العمل، وربطوا أنفسهم، ليس فقط باغاريين القدامى من أمثال يشوع وداود والمكابيين، بل أيضاً بأبطال الصهيونية مثل تيودور هيرتزل وبين جوربون، أولئك الرواد الأوائل الذين تملكتهم رؤية روحانية من نوع ما، وكان ينظر إليهم أحياناً كمجانين من طراز معين.

وبينما كان أعضاء الجوش العلمانيون والمتدينون مشغولين بتأسيس منظماتهم، حاول بعض أتباع كوك بمساعدة «المستوطن الأول» المقاتل موشيه ليفنجر خلق «نواة» مستوطنة صغيرة في مستودع سكك حديدية بالقرب من مدين نابلس العربية بالضفة الغربية. وكانت هذه منطقة مقدسة لليهود، فقد كانت نابلس تحتل موقع المدينة التوراتية شكيم Shechem التي ارتبطت ببعقوب ويشوع. وكان المستوطنون يحاولون إعادة القداية إلى الأرض التي رأوا أن الفلسطينيين قد دنسوها. وأسماوا المستوطنة إيلون مورا، وهو اسم توراتي آخر للمدينة. ثم حاولوا تحويل مستودع السكك الحديدية إلى بئشفا لدراسة النصوص المقدسة ووافقوا على الالتحاق بجماعة جوش إيمونيم. وحاولت الحكومة زحزحة المستوطنين لأن «النواة» كانت غير شرعية، إلا أن الجوش لم يشعروا بحاجة لإطاعة أوامر الأمم المتحدة التي طالبت إسرائيل بالانسحاب من الأرض المحتلة، من منطلق أن اليهود لا يخضعون لقوانين الشعوب الأخرى. واكتسب المستوطنون دعماً كبيراً في إسرائيل، على حين بدت الحكومة مترددة واهتة. وفي أبريل عام ١٩٧٥ قاد ليفنجر مسيرة قوامها عشرون ألف يهودي إلى داخل الضفة الغربية، وبدأ بمفاوض وزير الدفاع الإسرائيلي، شيمون بيريز، من داخل خيمته في إيلون مورا التي أسماها «غرفة موقع الحرب». وقامت معركة مع جنود جيش الدفاع لم يطلق فيها الرصاص. وفي النهاية، توجه بيريز في طائرة مروحية إلى الموقع وواجه ليفنجر في خيمته. واندفع الحاخام بعد الاجتماع إلى الخنارج وهو يمزق قميصه الأبيض كدلالة تقليدية على الحداد. وبما أن الانتخابات كانت على الأبواب، وكان بيريز يخشى فقد أصوات المتدينين، تراجع في النهاية. ثم وافق في ديسمبر عام ١٩٧٥ على

استيعاب ثلاثين من مستوطنى إيلون مورا، فى معسكر جيش قريب . وحمل الشباب المتهجمون لفينجر على الأكتاف وساروا به فى موكب ؛ إذ أصبح ، وهو الرجل النحيف ذو النظارة السميكة ، والرأس الأضلع ، وبنديقة معلقة على كتفه ، بطلاً يهودياً ، واحتل «المستوطن الأول» ، لفينجر ، بالنسبة للبعض مرتبة الـ Zaddik (الصديق أو الرجل الصالح الذى يقوم بالوساطة بين الخاخام وأتباعه) أو عالم التوراة ، أو الحسيدي (التقى) Haid . واكتسب أيضاً تأييد العلمانيين . وزعم الجندى القديم والإرهابى الذى اعترف على نفسه جويلا كوهن ، أن لفينجر «يمثل العودة إلى الصهيونية ، ويقف كالشمعة فى يهودا والسامرة (الأسماء التوراتية للضفة الغربية) ، وهو أيضاً قائد الثورة الصهيونية» .

وتم تأسيس مستوطنة إيلون مورا ، التى أطلق عليها اسم آخر وهو «كداميم» خلال موسم الـ Hanukkah ، أو عيد التدشين أى العيد الذى يحتفى فيه اليهود بتحرير المكابيين لأورشليم من السلوقيين من عام ١٦٤ ق . م من أجل إعادة التكريس للمعبد ، وطبقاً لأسطورة الجوش امونيم الجديدة ، أصبحت مستعمرة «النواة» Hanukkah جديدة ، أو الإنجاز الإلهي ، و«النصر من الرب» . وكانت تلك لحظة تشكيلية ، فقد بدت حركة المد وقد تحولت إذ أجبرت الصهيونية العلمانية على الخضوع لمشيئة الرب . ونجح لفينجر فى وضع التاريخ مرة أخرى على المسار الصحيح .

وكانت السنوات ما بين عامى ٧٤ و٧٧ دليلاً على العصر الذهبى للجوش . فأخذ الأعضاء يقومون بجولات فى البلاد يلقون خلالها المحاضرات ويجندون الفتيان والفتيات من المتدينين والعلمانيين الذين كانوا على استعداد لاستيطان المناطق المحتلة . وأفتتحت أفرع للجوش فى أنحاء البلاد . ورسمت الكوادر خطة رئيسية لاستيطان الضفة الغربية بأكملها . وكان الهدف هو استيراد مئات الآلاف من اليهود إلى المنطقة واستعمار كل المعازل الجبلية الاستراتيجية . وتمت استشارة المتخصصين فى جغرافية المنطقة وديموغرافيتها . وأنشئت هيئات إدارية للتخطيط والدعاية . وكانت إحدى تلك الهيئات هى ميت مرتزاي Mate Mirtzai التى نظمت عمليات الاستيطان . وكان المختلون يقودون مقطوراتهم القديمة المتهاككة إلى قمة

تل متعزل في الضفة الغربية في ظلمة الليل . وحينما يصل الجيش لطردهم، كانت الأحزاب اليمينية في الكنيست تتهم حكومة العمل بانتهاج مملك البريطانيين في فترة ما قبل الدولة . وكانت تلك الاستراتيجية حصيفة فقد كانت تُظهر الحكومة الإسرائيلية بمظهر القامع على حين كان المستوطنون الجوش يمثلون الماضي البطولي لإسرائيل .

إلا أن الجوش لم تتمكن إلا من إقامة ثلاث مستوطنات فقط خلال تلك السنوات . فقد كان رئيس الوزراء إيتزك رابين يريد استمالة سوريا ومصر في فترة ما بعد الحرب . واستمر يقاوم الجهد المشترك للجوش واليمين . إلا أن الجوش ثابرت في مجهوداتها الدعائية وقامت بتنظيم مظاهرات ضخمة ومسيرات عبر الضفة الغربية . وفي عام ١٩٧٥ حملت جماهير المتظاهرين لفائف الشريعة في أنحاء الضفة الغربية وهم يغنون ويرقصون ويصفقون . وانضم العلمانيون إلى المتدينين . وفي يوم الاستقلال عام ١٩٧٦ نظم ما يقرب من عشرين ألف يهودي مسلحين «نزهة» في الضفة الغربية وقاموا بمسيرة في طرف «السامرة» إلى طرفها الآخر . وكانت تلك المسيرات المسلحة والتظاهرات دائماً ما تحدث في توقيت يتوافق مع إقامة المستوطنات الجديدة ، أو وضع يد غير شرعي على الأراضي . وشجعت كل هذه الأفعال بعض الإسرائيليين على أن يروا الأرض المحتلة يهودية في جوهرها ، وعلى كسر تابو استيطان الأراضي المحتلة .

وكانت جماعة الجوش برجماتية وماهرة ومبتكرة . فقد خاطبت الملحدون والعلمانيين . إلا أنها كانت حركة دينية الجوهري . فقد ورث أعضاؤها التدين القبلائي عن الحاخامين كوك . فكان إنشاء مستوطنة على أرض اعتبرها أعضاء الجوش يهودية يعتبر مدأ لمملكة المقدس وإقصاء لحدود «الجانب الآخر» . وكانت المستوطنة تعادل ما يدعوه المسيحيون قرباناً ، أي رمزاً خارجياً للبركة غير المرتبة والتي تجعل المقدس حاضراً في العالم الدنيوي بشكل جديد أكثر فاعلية . وكان هذا ما أسماه إسحق لوريا "Tikkun" ، أو فعل إصلاح سيتسبب يوماً في تغيير العالم والكون . وكانت الافتحامات والمسيرات والاشتباكات مع الجيش ووضع اليد على الأراضي شكلاً من أشكال الطقوس تأتي معها بحس النشوة والتحرر والانطلاق .

فقد شعر أتباع كوك فجأة بالنشوة وأنهم في مركز الأحداث وعلى خط المواجهة في حرب كونية بعد سنوات من شعورهم بالدونية بالنسبة لكل من العلمانيين والأكاديميين الحريديم أو الأرثوذكس كما أنهم بإسراعهم بمقدم الخلاص، شعروا بتوحد مع الإيقاعات الأساسية للكون. وقد لاحظ المراقبون أنهم يتمايلون إلى الخلف والأمام وأعينهم مغمضة تماماً وقسمات أوجهم تتلوى من الألم وينتحبون بصوت عال أثناء تأديتهم صلواتهم. وكل هذه علامات على ما يسميه التصوفون القابالة Kawwanah، أو جهد التركيز المكثف أثناء تأدية الشعائر الدينية التي تمكن اليهود من استبصار الأهمية الجوهرية للشعائر من خلال أشكالها الرمزية. وفعل الـ Kawwanah، لا يقرب المتعب من الرب فقط، بل أيضاً يساعد هذا الفعل على تصحيح عدم الاتزان الذي يفصل العالم الدنيوي عن المقدس. ولا يقتصر شعور نشطاء الجوش بهذه النشوة على فعل تأدية الصلاة، لكنهم ينظرون إلى أنشطتهم السياسية من نفس المنظور. فكان مشهد الحاخام كوك وهو يبكي أمام الجماهير الفقيرة لدى المتاح مستوطنة جديدة يعدّ «كشفاً». وكذلك كانت المناسبات التي يتم فيها للفرقة الاستيلاء على الأرض وهم ملتفون بشلان الصلاة ويصرخون ويمسكون بالتربة وأصابعهم تدمى، بينما يقف الجيش محققاً من على التل قرب رام الله. ولم تكن تلك مجرد لحظات سياسية، فقد اعتقد النشطاء أنهم يستبصرون الأحداث المقدسة في قلب الحقيقة من خلال القشرة التي تغلف الأفعال الدنيوية.

وهكذا أصبحت السياسة فعل عبادة (Avodah). فقبل حضور اليهودي القداس في المعبد، يقوم بالاغتسال في الـ Mikveh أو الحمام الطقوسي ومن نفس المنطلق، فقد أعلن حاخامات الجوش قائلين «قبل أن نزل إلى مستنقع السياسة الموحد، علينا أن نطهر أنفسنا في الـ Mikveh، لأن هذا مثل الغوص في أسرار التوراة». ولهذه الملاحظة دلالتها التي تبين الازدواجية في جوهر تدين الجوش. فالسياسة مقدسة مثل التوراة لكنها أيضاً، كما أوضح كوك الأب منذ وقت بعيد، مستنقع موحد. ومنذ عام ١٩٦٧، خير أتباع كوك صدمة الأحداث التاريخية وكأنها «انفجار للضوء»، وكانت هذه إحدى الصور المفضلة لكوك الأب. بيد أنهم كانوا يعلمون أيضاً بشكل حاد ظلمة الفضل السياسي والانتكاسات والمعوقات. فكان

يتم الترحيب بالانتصارات الإسرائيلية كمعجزات عظيمة في نفس الوقت الذي كانوا فيه يدركون أن التقنية الحديثة والخبرة العسكرية هي سبب إنجاز هذه الانتصارات.

وعلى هذا، كان أتباع كوك على وعى تام بما هو دنيوى وما هو مقدس. وكان يوازن توقعهم إلى المقدس خيرة الحقيقة الدنيوية الحرون المعتمة المتصلبة. ومن ثم، كان تطرف صلواتهم وأنشطتهم والألم المرافق لها. فقد كانت مهمتهم هي جمع الحياة كلها، بما فيها تلك الأوجه الأكثر تدنساً وابتذلاً وانحرافاً، تحت مظلة المقدس. لكن على حين كان الحمسيديون يجردون بهجة وإشراقاً جديداً في تلك المهمة، كان انتشاء الجوش مشبعاً بالغضب والاستياء فهم ينتمون إلى العصر الحديث رجالاً ونساء، والمقدس أكثر بعداً، والتسامي على الحقيقة الدنيوية الضاغطة المثابرة التي يعتقد الكثيرون في عدم وجود سواها، جهد شاق. وتغلب نشطاء الجوش على اغترابهم في دولة إسرائيل العلمانية بمحاولة اغتصاب الأرض من العرب «الغرباء». وتراضوا مع هذا الأسلوب في التفكير بأن انتزعوا أنفسهم من جذورهم واقتحموا «حدود إسرائيل» واستعمروا الأرض المفقودة من زمن بعيد، وبالنسبة لهم فإن «العودة» إلى «أرض إسرائيل» هي محاولة لاستعادة حالة عقلية وقيمة أكثر «أصلية» من الحاضر المشوش.

إلا أنه كانت ثمة صعوبات واضحة في روحانية الغضب وإعادة الغزو. ففي عام ١٩٧٧ هُزم حزب العمل في الانتخابات لأول مرة في تاريخ دولة إسرائيل، وأنت إلى السلطة حكومة ليكود يمينية برئاسة مناحم بيغن. وكان بيغن دائماً يطالب بدولة يهودية على ضفتي نهر الأردن؛ وهكذا بدأ انتخابه، في البداية، فعل إلهي آخر. وبدأ هذا واضحاً بعد الانتخابات مباشرة حينما قام بيغن بزيارة الحاخام كوك في ميركاز هارالي، وجثا عند قدميه، وانحنى أمامه. وفيما بعد، تذكر هذا المشهد دانييل بن شيمون الذي كان حاضراً إذ قال «لقد شعرت بقلبي يكاد ينفجر داخلي لهذا المشهد السوربالي». ولا يحتاج الأمر إلى «برهان أكثر على أن فاننازيا كوك وتخيلائه كانت بالفعل حقيقة». وكان بيغن يبدي إعجاب الصريح بلفينجر، وكان يحب دائماً أن يدعو الجوش «أبنائي الأحباء». كما أنه كان يلجأ

لاستعمال الصور التوراتية لدى إيضاحه لسياسة الصقور التي اعتنقها .

وبعد الانتخابات، بدأت كتلة الليكود بمبادرة لاستيطان واسع في الأراضي المحتلة. وأعلن إرييل شارون الرئيس الجديد لهيئة الأراضي عزمه على توطين مليون يهودى في الضفة الغربية فى غضون عشرين عاماً، وبحلول عام ١٩٨٠ بلغت اتفاقات كتلة الليكود فى الأراضي المحتلة ٤٠٠ مليون دولار وأقامت عشرين مستوطنة يديرها ١٨٥٠٠ مستوطن. وبحلول أغسطس من عام ١٩٨٤ أصبح هناك ١١٣ مستوطنة حكومية رسمية تتضمن ست مدن كبيرة فى أنحاء الضفة الغربية. وتملك العرب الخوف وهم محاصرون من قبل ٤٦٠٠٠ مستوطن مقاتل، ولجأ بعضهم إلى العنف. وكانت تلك بيئة سياسية مثالية للجوش إيمونيم الذين كانوا يلقون دعماً كبيراً من الحكومة. وفى عام ١٩٧٨ أوكل رفائيل إيتان مسئولية الأمن فى الضفة إلى المستوطنات، كل فى منطقتها، وقام بتسريح مئات المستوطنين من الجيش للقيام بأعمال الشرطة فى الطرقات والحقول. وأمدتهم الحكومة الإسرائيلية بكميات كبيرة من الأسلحة المتطورة والمهمات العسكرية. وفى عام ١٩٧٩ أنشأت الحكومة خمسة مجالس محلية فى الضفة الغربية لها سلطة فرض الضرائب والإمداد بالخدمات، رغم أنها كانت تخدم فقط ٢٠٪ من سكان الضفة؛ أى أنهم أصبحوا فى واقع الأمر مسئولى الدولة. إلا أن سنوات من المواجهة تسببت فى أن يتشكك أعضاء الجوش فى الحكومة رغم صداقتها لهم. وبعد انتصار الليكود، أنشأ الأعضاء جماعة «آرمانا» أو «العهد» لتنظيم وتوحيد أنشطتهم الاستيطانية، وأيضاً Motzet Yesh، وهو مجلس مستوطنات الجوش كى يمنحهم بعض الاستقلال.

وكان الجوش محقين فى تشككهم لأن شهر العمل مع الليكود كان قصيراً ففى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٧٧ قام الرئيس المصرى أنور السادات بزيارته التاريخية للقدس كى يبادر بعملية للسلام. وفى العام التالى وقع السادات وبيجن اتفاقيات كامب دافيد التى نصت على أن تعيد إسرائيل إلى مصر شبه جزيرة سيناء التى احتلتها عام ١٩٦٧ وعلى أن تعترف مصر بإسرائيل، كما ضمنت الأمن على الحدود المشتركة. وتطلعت تلك الاتفاقيات إلى «إطار للسلام» ومفاوضات مستقبلية بين إسرائيل والأردن ومصر وممثلين عن الشعب الفلسطينى، حول

مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة. وكانت اتفاقيات كامب دافيد، بالنسبة للجانبين برجماتية. فقد استرجعت مصر جزءاً كبيراً من الأرض، وحصلت إسرائيل على قدر من السلام. ولم تكن سيناء أرضاً مقدسة إذ إنها لم تكن ضمن أرض الميعاد التي وصفتها التوراة. وكان بيغن يصر دائماً على أنه ليس ثمة مجال لإعادة الضفة الغربية إلى العرب، وكان أيضاً يثق أن إطار مناقشات التسوية لن يتبلور أبداً إذ إنه لا توجد دولة عربية أخرى تستطيع الإقرار بدولة إسرائيل. وفي اليوم الذي وقعت فيه اتفاقية كامب دافيد أعلن بيغن أن الحكومة ستقوم بإنشاء عشرين مستعمرة في الضفة الغربية.

إلا أن هذا لم يشف غليل الصهاينة المتدينين أو الجوش أو اليمين الإسرائيلي بوجه عام. وفي ٨ أكتوبر عام ١٩٧٩ تم رسمياً إنشاء «تجيا» أو حزب نهضة جديد بمباركة الحاخام كوك نجابهة كامب دافيد وللحيلولة دون أية تنازلات إقليمية أخرى. وفي الحزب السياسي الجديد، عمل المسؤولون المتدينون والراديكاليون المتطرفون معاً. وفي عام ١٩٨٠، أنشأ حاييم روكمان من أتباع كوك السابقين وعضو «الجاهلت»، حزبه المسمى «موراشاه» أو «التراث» كي يضغط من أجل استيطان أكثر في الضفة الغربية. ولم تكن كامب دافيد سلاماً بالنسبة للجوش الذين بنوا الصلة اللغوية بين شالوم «سلام» و«شيلموت» Shlemut، أو الكلية والاكتمال. فالسلام الحق يعني النقاء الإقليمي والحفاظ على كل «أرض إسرائيل»، ولا يمكن أن يكون ثمة تنازلات. وبين الحاخام الجوش إيعازار والدمان أن إسرائيل تخوض حرباً ضد الشر يتعلق بها مصير العالم أجمع، فقال: «إن الخلاص ليس خلاص إسرائيل فقط، لكنه خلاص العالم أجمع. إلا أن خلاص العالم يتوقف على خلاص إسرائيل. وإلى هذا، يعود تأثيرنا الأخلاقي والمعنوي والروحاني على العالم أجمع، فالبركة ستحل على البشرية جمعاء من شعب إسرائيل وهو يحتل أرضه كلها».

إلا أن تنفيذ هذا الإلزام الأسطوري بدا محالاً في عالم يدار على أسس برجماتية علمانية. كما أن خطاب بيغن الذي كان يمثل الصقور ويؤسسه على التوراة، لم يهدف قط إلى تدخّل منطق الروح في منطق السياسة العملي العلماني. فقد كانت

الكفاءة والفاعلية هي شعارات الروح الحدائرية منذ البداية، وكان على المبادئ المطلقة التكيف مع مقتضيات السياسة الواقعية من أجل تسيير شؤون الدولة، إذ كان على بيجن أن يحرص على حسن سمعته لدى الولايات المتحدة التي كانت تريد عملية السلام.

وستظل هذه إحدى المشكلات الرئيسية للأصوليين الذين يقاتلون من أجل الإله في عالم السياسة الحديثة. فقد أنجزت الجوش إيمونيم بعض المكاسب خلال هذه السنوات. ففي عام ١٩٧٨ أقام شلومو أفينير أحد الفرنسيين من خريجي السوربون ومركز هاراف يشيفا «تاج الكهنة Ateret Cohanim» في الحى الإسلامى من القدس الشرقية. وكانت اليشيفا تطل على جبل المعبد الذى تحتله قبة الصخرة ثالث أقدس بقعة في العالم الإسلامى. وكان هدف اليشيفا دراسة النصوص المتعلقة بالكهنتوت والأضحيات فى المعبد التوراتى استعداداً لقدم المخلص وإعادة بناء المعبد القديم. وبما أن المعبد الجديد يعنى هدم الصرح الإسلامى، كانت إقامة اليشيفا نفسها عملاً استفزازياً. إلا أن «تاج الكهنة» كانت مبادرة لإنشاء مستوطنة فى القدس القديمة التى ضمتها إسرائيل متحدة الجماعة الدولية عام ١٩٦٧. وبدأت اليشيفا سراً فى شراء الممتلكات العربية فى الحى المسلم وإعادة إنشاء المعابد القديمة هناك من أجل إقامة حضور يهودى قوى فى القدس العربية. أما المكسب الثانى فقد حدث خلال ١٩٧٩ حينما تحدت الجوش حكماً للمحكمة العليا الإسرائيلية التى أمرت بهدم مستوطنة إيلون موراى جنوب شرقى نابلس، وهددت الجوش باندلاع حرب أهلية وإضراب عن الطعام، ومن ثم شكل مجلس الوزراء فى آخر يناير عام ١٩٨٠ لجنة خاصة لإيجاد الوسائل لحماية المستوطنات القائمة وخلق فرص جديدة تخترق بها القيود التى فرضتها المحكمة العليا. وفى ١٥ مايو أعلنت الحكومة عن خطة خمسية لإنشاء تسع وخمسين مستوطنة جديدة فى الضفة الغربية.

ورغم تلك النجاحات المتفرقة، فقد ذوى مجد الجوش. إذ لقى السلام الجديد قبولاً بين جمهور الإسرائيليين عام ١٩٨٢، وميت الجوش بهزيمة حقيقية. فمن أجل الإذعان لكامب دافيد، أصدرت الحكومة قراراتها بالهلاء عن مستعمرة

ياميت، وهي مدينة علمانية مزدهرة أقامتها حكومة العمال على شواطئ سيناء. وأعلن موشيه لفينجر أن الصهيونية قد أصابها فيروس السلام. وقاد آلافاً من مستوطنى الضفة الغربية عائدين إلى ياميت حيث عمسكروا فى المنازل المهجورة وتحذوا قوات جيش الدفاع أن يخرجوهم. وكانت تلك خطوة يائسة. وذكر لفينجر المستوطنين بالحروب التى خاضها اليهود ضد روما (٦٦ - ٧٢م) التى انتصر خلالها ٩٦٠ رجلاً وامرأة وطفلاً فى قلعة Massada كى لا يستسلموا للجيش الرومانى. ثم بحث حاخامات الجوش الأمر مع حاخامى إسرائيل الرئيسيين اللذين أصدرتا فتوى ضد هذا النوع من الاستشهاد، ومرة أخرى عمد الحاخام لفينجر إلى تمزيق ثيابه حداداً على الموقف. وحينما وصلت قوات الدفاع لإبعاد المستوطنين لم تسل دماء يهودية. إلا أن الجوش كانوا متأهبين لعملية يحسمون بها النزاع. وللحظة، بدت إسرائيل المتدينة وإسرائيل العلمانية وقد احتلتا مواقع متقابلة على أرض المعركة.

ويحتمل أن الموقف فى ياميت كان استراتيجياً لا واعية لأفكار الحقيقة الرهيبة. فلم تحدث الصحوة الكبرى التى كان أتباع كوك واثقين من حدوثها، لذا لم يبد الأمر وأن الخلاص كان وشيكاً. وتساءل الجوش عن مدى قدسية تلك الدولة التى قدمت كل تلك التنازلات. ومر أعضاء الجماعة المتدينين بتجربة وإحباط عظمى، بشأن الأمل المشيحانى، الأمر الذى قد يؤدى إلى أعمال أكثر عنفاً. ورغم محاولتهم المخلصة فلم يستطع الجوش أن يجعلوا السياسات الإلهية، فاعلة فى دنيا الواقع. ثم توفى الحاخام كوك قبيل الانسحاب من سيناء، مما زاد الجماعة شعوراً بالخذلان. ولم يظهر لكوك خليفة يجتمع عليه الآراء. وانقسمت الحركة. ونادى البعض بالصبر والصلاة والتركيز على التعليم لإحياء روح إسرائيل الحقيقية. وتأهب الآخرون استعداداً للتعنف.

ولم يكن بيجن وحده هو من واجه المعارضة الدينية لكامب دافيد. فقد واجه رقمه المقابل، أى الرئيس المصرى أنور السادات، معارضة إسلامية فى بلده. فقد أكسبت معاهدة السلام الرئيس أنور السادات حب وإعجاب الغرب. أما فى مصر، فرغم أن السلام لاقى قبولاً من قطاعات كثيرة من المجتمع، كان شعور المصريين تجاه

رئيسهم ميهماً. فقد أحب الشعب المصري عبد الناصر حياً جماً رغم مأساة حرب الأيام الستة. ولم يجتذب السادات أبداً نفس المشاعر. فكان ينظر إليه دائماً على أنه غير ذى ثقل سياسى. وكان عليه، حينما أتى إلى الحكم عام ١٩٧١، أن يحبط محاولة رئاسية للانقلاب ضده. وأسهم الانتصار النسبى فى أكتوبر عام ١٩٧٣ إسهاماً كبيراً فى إرساء شرعيته. وبعد أن أثبت نفسه فى ميدان القتال واسترد ثقة العرب، استطاع توجيه شعبه نحو عملية السلام التى اعتقد أنها ستصلح من علاقات مصر بالغرب.

وكان ناصر قد تراجع نسبياً عن الاشتراكية بعد هزيمة ١٩٦٧، وأتى بمبادرة للتقارب مع الغرب. واعترافاً منه بالمزاج الدينى الجديد فى الشرق الأوسط، أخذ يبطن خطابه بمراجعيات إسلامية مرة أخرى رغم أن الإخوان المسلمين ظلوا فى المعتقلات والسجون. وأصبح هذان التوجهان أكثر وضوحاً فى ظل السادات. فقام عام ١٩٧٢ بالاستغناء عن ١٥٠٠ مستشار سوفيتى كان ناصر قد استحضرهم. وبعد حرب أكتوبر أعلن عن سياسة جديدة صممت كى تدخل بها مصر سوق الرأسماليين العالمية، وأسمى مبادرته الاقتصادية الجديدة «الانفتاح». إلا أن السادات لم يكن رجل اقتصاد. وكانت مشكلات مصر الاقتصادية قد ظلت دوماً «كعب أخيل». وزاد الانفتاح تلك المشكلات تفاقماً. فانهمرت العملات والواردات الأجنبية على مصر. وخطب ود المستثمرين بتعاملات ضريبية فى صالحهم، واقتربت مصر من الولايات المتحدة. وأفاد من الانفتاح نسبة صغيرة من البرجوازيين الذين سطع نجمهم، وحقق مصريون قلائل مكاسب هائلة. إلا أن الغالبية العظمى كانت تعاني. وكما كان محتوماً، لم تستطع الأعمال المصرية التصدى للمنافسة الأجنبية، وانتشر الفساد، والاستهلاكية الفجة بين النخبة التى أثارَت الاشمئزاز والسخط العميق. وشعر الشباب خاصة بالاعترا ب. فلم يعد يتوقع سوى ٤٪ من بينهم الحصول على وظائف محترمة، وكان على الآخرين أن يعيوا على المرتبات الهزيلة للقطاع العام، مما دفعهم إلى القيام بأعمال أخرى فى وقت فراغهم لدعم دخولهم. فكانوا يقومون بقيادة سيارات الأجرة وأعمال السباكة والكهرباء دون أن يكونوا، فى غالب الأمر، مؤهلين لذلك. وارتفعت أسعار المساكن اللانقاة ارتفاعاً غير مسبوق، وكان هذا يعنى أن ينتظر المخطوبون من

الشباب سنوات قبل أن يتمكنوا من «فتح بيت» لهم. وغدت الهجرة هي الأمل الوحيد. فأجبر مئات الآلاف من المصريين على ترك أوطانهم لمدد طويلة بحثاً عن عمل في مواطن البترول الغنية حيث يتقاضون مرتبات حسنة ويرسلون المال إلى أسرهم ويدخرون من أجل المستقبل. ولحق الفلاحون أيضاً بهذا «الخروج» إلى الخليج ليعودوا، فقط، بعد أن يدخروا الأموال لبناء المنازل أو شراء الجرارات. وحبب الانفتاح الغرب في السادات، إلا أن ذلك كان يعنى عدم استطاعة معظم المصريين العيش في وطنهم، ومن ثم، أجبروا على الذهاب إلى المنفى.

وتجذرت ثقافة «الأعمال» الأمريكية في مصر، وكانت البلاد، بالنسبة لمصريين كثيرين، تبدو غريبة ومتفرقة. وزاد اغتراب السادات عن شعبه. فقد كان أسلوب حياة زوجته جيهان غريباً استعراضياً براقاً. وكانت كثيراً ما تُشاهد وهي تستضيف المرموقين من الأجانب ونجوم السينما، وعرف عنها أنها تتناول المُسكرات وتحيا حياة بذخ منعزلة عن المعاناة التي يلقاها معظم السكان في استراحات تكلف ترميمها ملايين الدولارات ولم يتوافق هذا مع صورة السادات «المتدين» التي كان قد «زرعها» بعناية. فالحاكم المسلم في الموروث السني، يؤمر بعدم الانفصال عن رعيتيه، وبأن يحيا حياة زهد وتقشف بحيث يضمن أن توزع ثروة الأمة بأعلى قدر من العدالة. وسمى السادات نفسه «الرئيس المؤمن»، وشجع الصحافة على التقاط الصور له في المساجد وعلى التركيز على «علامة الصلاة» البارزة في جبهته. إلا أن هذا، وكما كان حتمياً، دعا المسلمين أن يعقدوا مقارنات ليست في صالحه، بين سلوكه الفعلي والمثال الذي يدعيه.

وقام السادات بأعمال سطحية تظاهر فيها بخدمة الدين إذ كان بحاجة لخلق هوية لنظامه تختلف عن هوية نظام عبد الناصر. فقد ظل المصريون، ومنذ عصر محمد علي، يحاولون الدخول إلى العالم الحديث، وأن يوجدوا لهم مكاناً هناك. فقاموا بمحاكاة الغرب، وتبنوا أساليب سياسية وأيديولوجيات غربية، وحاربوا من أجل الاستقلال، وحاولوا إصلاح ثقافتهم على أسس أوربية حديثة. ولم تنجح أي من تلك المحاولات، ومثل الإيرانيين، شعر مصريون كثيرون أن عليهم «العودة إلى أنفسهم» وخلق هوية حديثة، لكنها أيضاً إسلامية مميزة. وأسعد السادات استثمار

هذا التوجه. فحاول جعل الإسلام ديناً مدنياً، على غرار النموذج الغربي، يخضع لسلطة الدولة. فعلى حين اضطهد عبد الناصر الجماعات الإسلامية، تظاهر السادات بأنه محررها. فقام بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٥ بالإفراج التدريجي عن الإخوان المسلمين الذين كانوا قد ظلوا في المعتقلات والسجون. كما قام بتخفيف حدة قوانين عبد الناصر الصارمة التي تحكم الجماعات الدينية وسمح لهم بالتجمع والدعوة والنشر. إلا أنه لم يسمح لجماعة الإخوان بإعادة تكوين نفسها كجماعة سياسية كاملة الصلاحيات. فقد سمح لأعضائها بإلقاء الخطب وإصدار صحيفة والدعوة، الخاصة بهم. وتكاثر بناء لمساجد وشغل الإسلام وقتاً أطول من حياة الناس. وخطب السادات أيضاً ود الجماعات الطلابية الإسلامية وشجعهم على الاستحواذ على السلطة في الجامعات لحرمان الاشتراكيين والناصرين من السيطرة. فحينما حاول عبد الناصر قمع الدين أتت هذه السياسة بعكس نتائجها وأدت إلى نشوء تدين سيد قطب المتطرف. والآن، حاول السادات اجتذاب المتدينين واستعمال الدين لتحقيق أهدافه الخاصة. وكان لهذا أن يبرهن على خطأ كارثي في الحساب.

وبدت سياسة السادات في بدايتها ناجحة، فمثلاً، بدت جماعة الإخوان وأنها قد استوعبت الدرس. فمثلاً، فتكر القادة من الأجيال القديمة الذين أفرج عنهم لسيد قطب والجهاز السري، ورجعوا في العودة إلى سياسات حسن البناء الإصلاحية غير العنيفة. وكان الإخوان المسلمون يرغبون في دولة تحكمها الشريعة الإسلامية؛ إلا أنهم رأوا هذا الهدف بعيداً يمكن إنجازه فقط بواسطة أساليب سلمية قانونية. ورغم أن الجماعة زعمت أنها قد عادت إلى الروح الأصلية النقية للإخوان، إلا أنها أصبحت منظمة مختلفة جذرياً. فعلى حين كان البناء يخاطب الطبقات العاملة والمتوسطة، اجتذبت الجماعة التي كان يدعوها بعض المفكرين «الإخوان الجديدة» في السبعينيات أفراد البرجوازية الذين استفادوا من سياسة الانفتاح الساداتية. فكانوا أغنياء يرفلون في حلل الراحة وعلى استعداد للتعاون مع النظام. ولم ترق هذه «الإخوان الجديدة» للغالبية الذين شعروا بشكل متزايد، بالاعتراب عن مصر السادات، وعانوا من الحرمان المهلك. وفي غياب السماح بأية معارضة للنظام، بحث معظم المغتربين عن بديل إسلامي أكثر تطرفاً.

لكن سرعان ما تسببت سياسات السادات في استعداء الإخوان الجديدة. فقد كانت صحيفتها والدعوة، التي كانت توزع ٧٨٠٠٠ نسخة، تنشر أخباراً شهرية عن أعداء الإسلام الأربعة، أي: المسيحية الغربية والتي كانت تسميها الصليبية للتأكيد على توجهها الاستعماري، والعلمانية (التي يمثلها أتاتورك)، والشيوعية، والصهيونية. وكانت أشد الكراهية تنصب على اليهودية بوجه خاص التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالأعداء الثلاثة الآخرين. وكانت مقالات والدعوة، تستشهد بآيات من القرآن الكريم تتحدث عن اليهود الذين تمردوا على الرسول في المدينة وتجاهل الآيات التي تكرم العقيدة اليهودية. وزعمت والدعوة، أن معاداتها للسامية ترجع إلى الرسول، إلا أنها في الواقع كانت بدعة إسلامية اعتمدت اعتماداً كبيراً على بروتوكولات حكماء صهيون أكثر من اعتمادها على المصادر الإسلامية. والحال كذلك، كان من المحال أن تظل الإخوان موالية للسادات بعد كامب دافيد. وخلال عام ١٩٧٨ بأكمله وضعت والدعوة، شرعية النظام الإسلامية موضع التساؤل. وصدر عدد مايو عام ١٩٨١ وعلى غلافه صورة قبة الصخرة تحوطها سلسلة أغلقت بقفل عليه نجمة داود.

إلا أنه في الوقت الذي زار فيه السادات القدس كانت قد ظهرت في حيز الضوء جماعة إسلامية أشد تطرفاً كان قاداتها يحاكمون بتهمة اغتيال الشيخ محمد الذهبي، وكان مفكراً إسلامياً مرموقاً ووزيراً سابقاً. وصدم المصريون وهم يستمعون إلى هؤلاء المسلمين الشبان يعلنون أن الإسلام قد انتابته حالة من الأفول منذ عصر الخلفاء الراشدين، وأن كل التطورات الإسلامية منذ ذلك الحين كانت مجرد وثنية، وأن كل أهل مصر، بمن فيهم رئيسها وأعضاء المؤسسة الدينية، ينتمون إلى الجاهلية. وأعلنت الطائفة أنه يجب تدمير هذا المجتمع الجاهلي وإقامة مجتمع إسلامي حق مؤسس على القرآن، والسنة على أنقاضه، وأن الله قد اختار شكري مصطفى، مؤسس الجماعة، لإيجاد قانون جديد وإعادة التاريخ الإسلامي إلى الصراط المستقيم.

وكان قد ألقى القبض على شكري وهو في الثالثة والعشرين، وسجن أثناء حكم عبد الناصر بتهمة توزيع منشورات جمعية الإخوان المسلمين. وقضى شكري

ستة أعوام في المعتقل عقاباً على تلك التهمة التافهة حيث أمضى وقته يقرأ
 المودودي وقطب مثل كثير من الإخوان الشبان. ومارس هؤلاء الإسلاميون
 المتطرفون في المعتقل «الانفصال» الذي تطلبه سيد قطب. وتجنبوا رفقة زملائهم في
 المعتقل وأيضاً من هم أكبر سناً من الإخوان المعتدلين وأعلنوا أن هؤلاء ينتمون إلى
 الجاهلية. وقرر البعض الإبقاء على آرائهم سرّاً، وكان قطب قد اعتقد أن الطليعة
 يلزمها وقت طويل حتى تصبح معدة للجهاد ضد المجتمع الجاهلي؛ وأن عليهم أولاً
 أن يكملوا المراحل الثلاث من برنامج الرسول وأن يعدوا أنفسهم روحانياً. ومن
 ثم، قرر بعض المتطرفين الشباب في المعتقلات أنهم كانوا حينذاك في حالة «ضعف»
 وأنهم غير مؤهلين لمواجهة المجتمع الشرير. ولذا، كان عليهم أن يظلوا يحيون حياة
 عادية في الجاهلية إلى أن يحين الوقت. إلا أن شكري كان ينتمى للجماعة الأكثر
 تطرفاً والتي رأت وجوب «المفاصلة الكاملة» واعتبروا أي شخص خارج جماعتهم
 كافراً ولا يجوز للمؤمنين الحق التعامل معه. وكانوا يرفضون الحديث مع المساجين
 الآخرين لدرجة أنه نجحت عن ذلك معارك بالأيدي. وحينما تم الإفراج عن شكري
 من سجن أبو زعبل في ١٦ أكتوبر عام ١٩٧١، أنشأ جماعة جديدة أطلق عليها
 اسم «جماعة المسلمين» التي اقتنع أعضاؤها بأنهم طليعة قطب وكرسوا أنفسهم
 لتنفيذ برنامجه. ولذا، فقد انسحبوا من التيار الرئيسي للمجتمع كي يعدوا
 أنفسهم للجهاد حتى أنهم رفضوا التعبد في المساجد لأن المجتمع المصري كان
 فاسداً بأكمله. كما أصدروا حكمهم بتكفير المؤسسة الدينية والعلمانية معاً.
 وهاجر بعضهم إلى الصحراء وكهوف الجبال حول مدينة أسيوط موطن شكري.
 وسكنت غالبيتهم حجراً مفروشة في أشد الأحياء فقراً خارج المدن الكبيرة
 وأكثرها حرماناً حيث حاولوا أن يحيوا حياة إسلامية حقة. وبحلول عام ١٩٧٦
 كان لجماعة المسلمين ٢٠٠٠ عضو اعتقدوا بأن الله اصطفاهم كي يؤسسوا أمة
 طاهرة على أنقاض الجاهلية، وأنهم بين يدي الله، وأن الله سيفعل بهم ما يشاء بعد
 أن أخذوا هم بزمام المبادرة. ووضعهم رجال الشرطة تحت المراقبة إلا أنهم تجاهلهم
 على أنهم مختلون ومهمشون ولا ضرر منهم. ولو حدث واهتم السادات
 ومستشاروه بدراسة حياة هؤلاء الأصوليين الشباب البؤساء، لوجدوا أن
 مجتمعاتهم هي الصورة المعكوسة لسياسة الانفتاح، وأنها تعكس الجانب المظلم

وقد يكون تكفير شكري للمجتمع المصري برمته متطرفاً، إلا أنه ليس بدون أساس. ورغم أن مساجد كثيرة قد شيدت في مصر السادات، فلم يكن ثمة ماهر إسلامي في أمة تمتلك الثروة فيها نخبة قليلة بينما تحيا الغالبية واهنة في فقر يائس. وكانت هجرة أعضاء تلك الجماعة إلى أكثر أحياء المدن بؤساً برهاناً على مأساة كثير من شباب مصر الذين شعروا ألا مكان لهم في مصر وأنهم قد ألقى بهم إلى خارج بلادهم. وكان يتفق على تلك الجماعة شبان أرسلهم شكري إلى بلدان الخليج، كغيرهم من شباب مصريين كثيرين. ورغم أن كثيراً من أعضاء الجماعة كانوا من خريجي الجامعات، إلا أن شكري أعلن أن التعليم العلماني مضية للوقت إذ إن ما يحتاج المسلم معرفته هو كتاب الله فقط، ورغم تطرف هذا الموقف فقد كان على قدر من الصحة. فقد كان التعليم الذي يتلقاه الشباب في السبعينيات غير ذي نفع لهم إذ لم يقتصر الأمر على قصور عملية التدريس ومناهجه بشكل مزر، بل أيضاً لم تعد الدرجة الجامعية تضمن للشباب الحصول على وظيفة لائقة. وكانت الخادمة في منزل أجنبي تحصل على أجر يفوق راتب الأستاذ المساعد بالجامعة.

وتركت السلطات أعضاء الجماعة في حال سبيلهم حيث لم يجذبوا إليهم الأنتظار. إلا أنه في عام ١٩٧٧ قام شكري بخلع غطائه. فقد حدث في نوفمبر عام ١٩٧٦ أن اجتذبت جماعة إسلامية منافسة بعض أعضاء الجماعة واعتبر شكري هؤلاء خوارج وأحل قتلهم وقام أتباعه بشن مجموعة من الغارات عليهم. ونتيجة لهذا، ألقى القبض على أربعة عشر من أعضاء الجمعية بتهمة محاولة القتل. وإزاء هذا، اتخذ شكري من فورهِ موقفاً هجومياً. فقام بشن حملة في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٧٧ للإفراج عن رُسلاته بإرسال مقالات إلى الصحف ومحاولة التحدث عبر الإذاعة والتلفزيون. وفي ٧ يوليو قام باختطاف الشيخ محمد الذهبي الذي كان قد كتب مقالاً يدين فيه الجماعة ويتهمها بالهرطقة. وفي اليوم التالي للاختطاف، نشر شكري بياناً في ثلاث صحف مصرية، وأيضاً في بلاد إسلامية عديدة وفي نيويورك وباريس ولندن مطالباً فيه بالإفراج الفوري عن

اتباعه، والاعتذار العلني، وتشكيل لجنة لتبحث في النظام القانوني والتجاري للنظام. ولم تكن ثمة فرصة لأن يسمح السادات بالنقاش حول بوليصة السرى. وأيضاً، فقد كان من الواضح أن شكرى لم يفهم طبيعة الدولة التي تحداها. فحينما تم اكتشاف جثة الشيخ الذهبي بعد أيام قليلة، ألقى القبض على شكرى ومات من أتباعه. وعقب محاكمة سريعة، تم إعدام شكرى وخمسة آخرين من قادة الجماعة. وأطلقت الصحافة على الجماعة اسم «التكفير والهجرة» نظراً لأيديولوجية الرفض والإدانة التي كانت تعتنقها. وقد انبثقت شريعة تلك الجماعة، مثل شريعة كثير من الأصوليين، من خبرة التهميش والغضب. وتلفت قصة شكرى أنظارنا إلى أن وصف مثل هذه الحركات بالجنون هو وصف غير دقيق. فرغم كون شكرى غير متوازن ومخطئ بشكل مأساوي إلا أنه خلق ثقافة مضادة كانت تعكس الجانب المظلم لمصر السادات الجديدة التي كان الغرب يهمل لها بحماس، وبينت هذه الصورة بشكل مشوه ومبالغ فيه، ما كان يحدث حقاً، وعبرت عن الاغتراب الذي خيره شباب مصريون لم يشعروا أنهم ينتمون إلى هذا البلد.

أما الجماعة الإسلامية الأكثر نجاحاً واستمراراً، والتي سيطرت على الجامعات في فترة رئاسة السادات، فقد كشفت أيضاً عن الأوضاع. ومثل جماعة شكرى، رأى أعضاء الجماعة الإسلامية أنفسهم الطلائع التي تحدث عنها قطب. إلا أنهم لم يمارسوا الانفصال الجذري عن التيار الرئيسي، لكنهم حاولوا خلق حيز إسلامي في مجتمع بدا غافلاً عن احتياجاتهم. ولم تكن الجامعات المصرية مثل أكسفورد أو هارفارد أو السوربون. فقد كانت مؤسسات جماهيرية ضخمة لا قلب لها وفي حالة يرثى لها من الإعداد ففيما بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٧ قفز عدد الطلبة من ٢٠٠,٠٠٠ إلى مليون طالب. وغدا التكديس ميخيفاً نتيجة لهذا. فكان على كل اثنين أو ثلاثة من الطلبة اقتسام مقعد واحد، وازدحمت قاعات المحاضرات والمعامل لدرجة أصبح معها من المحال سماع صوت المحاضر وخاصة أن مكبرات الصوت كانت دائمة العطل. وأصبحت شدة الازدحام تمثل صعوبة خاصة للطلبات اللاتي كانت كثيرات منهن ينتمين إلى خلفيات محافظة ووجدن أن تكديسهن وسط الطلبة على المقاعد وفي الحافلات التي تنقلهن إلى المدن الجامعية أمر لا يحتمل. وعرفت كليات العلوم الإنسانية والحقوق والعلوم الاجتماعية بكليات «القمامة»

بعد أن تدنت مكانتها. وكان المتفوقون من الطلبة، بغض النظر عن ميولهم، يرغمون على دراسة الطب والصيدلة وطب الأسنان والهندسة، بدلاً من الالتحاق بالكليات النظرية التي يقوم بالتدريس لهم فيها أسوأ الأساتذة ولا يجدون لأنفسهم عملاً مقبولاً بعد التخرج. ولم يدرّب الطلبة، في هذا الإطار، على التفكير الإبداعي عن مشاكل البشرية أو المجتمع، بل أجبروا بدلاً من هذا على ابتلاع المعلومات بأسلوب سلبي لا حياة فيه. ومن ثم، كان إمامهم بالثقافة الحديثة سطحياً بشكل مزمن، وأيضاً، فقد أهملت معتقداتهم وممارساتهم الدينية إهمالاً تاماً.

وأصدرت الجماعة بعض الكتب والكتيبات، إلا أن مقال إسلام الدين العريان الذي نشره في «الدعوة» وكان سيد قطب هو مصدر إلهامه، هو الذي يلخص أفكارهم الرئيسية، فقد بين المقال أن الوقت قد حان ليستخلص المصريون من الأيديولوجيات الغربية والسوفييتية التي هيمنت على البلاد لوقت طويل، ويعودوا إلى الإسلام إذ إن مصر يحكمها الكفار في واقع الأمر، ولا يمكن أن يكون هناك استقلال حقيقي إلا في ظل صحوة دينية كبرى. ولم تحد الجماعة نفسها بمناقشة الأفكار، بل كانت أيضاً تطبق أيديولوجيتها على محيطها تطبيقاً عملياً وخلاقاً. ففي عام ١٩٧٣ أقام الطلبة معسكرات صيفية في الجامعات. حيث كانوا يدرسون القرآن، ويصّلون جماعة في المساء، ويستمعون إلى الخطب عن العصر الذهبي للإسلام، وعن سيرة الرسول والخلفاء الراشدين. وأثناء النهار، كانوا يمارسون الأنشطة الرياضية ويحضرون دروساً في الدفاع عن النفس. وكان الطلبة، ولمدة أسابيع قليلة، يحيون ويفكرون ويلعبون في إطار إسلامي محض. وكان هذا، بمعنى ما، هجرة وقتية، أي هجرة من التيار الرئيسي للمجتمع إلى عالم يمكنهم فيه أن يحيوا تعاليم القرآن ويخبروا بأنفسهم أثره على حياتهم. وتعلموا كيفية الحياة في بيئة تركز بالفعل لتعاليم كتاب الله. وكانت المعسكرات تضيء على التجربة مذاق اليوتوبيا الإسلامية بالتقابل الحاد مع عدم المصادقية الإسلامية للنظام. وكان الخطباء والوعاظ يناقشون الإحباط المر لتجربة الحداثة التي قد تكون قد نجحت في أوروبا وأمريكا، لكن مزاياها في مصر حظى بها الأثرياء فقط.

ولدى عودة الطلبة إلى حياتهم الجامعية، كانوا يحاولون إعادة إنتاج تلك التجربة في الجامعة. فقاموا بتخصيص «مبنى باص» للنساء كى يجنبوهن المضايقات التى كن يتعرضن لها فى المواصلات العامة. وأصرروا على فصل الجنسين فى قاعات المحاضرات، وتبنوا ارتداء الزى الإسلامى للرجال والنساء. وكان ارتداء الشياى الطويلة الساترة أمراً عملياً بدرجة أكبر فى المجتمعات التقليدية التى لم تكن تستسيغ اللقاءات العاطفية على غرار المجتمع الغربى، وحيث كان الإحباط الجنسى يمثل مشكلة كبرى للشباب المصرى (إذ إن الزواج لم يكن متاحاً لأسباب اقتصادية) وقامت الجماعة أيضاً بتنظيم دروس للمراجعة فى المساجد حيث كان باستطاعة الطلبة الاستذكار فى هدوء غير متاح فى المدن الجامعية المكتظة. وأثبتت تلك الترتيبات فاعليتها. فكانت الطالبة ترتدى الزى التقليدى أو تجلس فى المقاعد المخصصة لجنسها فى قاعة المحاضرات لتتخاضى الإحراج فى المقام الأول، إلا أنهن كن يدركن فى نفس الوقت أن النظام غير مبال بما فيه خيرهن على خلاف الجماعة. وأيضاً، كان الطالب حينما يترك المدينة الجامعية الهادئة بالضوء كى يدرس بالمسجد، يقوم بهجرة رمزية صغيرة ويدرك أن الإطار الإسلامى أصلح له بكثير. وكان الكثير من الطلبة من بينات ريفية تقليدية ما قبل حديثة. ولم يقتصر الأمر على أنهم كانوا يخبرون الحدائة فى الجامعة كتجربة غريبة مربكة وغير شخصية، بل إنهم أيضاً لم يمنحوا أدوات فكرية تمكنهم من انتقاد النظام من خلال التعليم الواهى الذى كانوا يتلقونه. لذا، وجد الكثيرون منهم أن الإسلام وحده ذو معنى فى هذا العالم.

وقد استاء المراقبون الغربيون على وجه الخصوص من مشهد النساء وهن يعدن طوعاً إلى الحجاب الذى كان ينظر إليه، منذ عصر اللورد كرومر، كرمز للتخلف الإسلامى والنظام الأبوى. لكن هؤلاء النساء اللاتى ارتدين الزى الإسلامى طواعية، ولأسباب عملية، وأيضاً، كأسلوب لاقتلاع الهوية الغربية الغربية، لم يخبرن الأمر بهذا الشكل. فقد يكون ارتداء الحجاب، أى غطاء الرأس والذى الطويل، رمز العودة إلى النفس، التى كان يحاولها الإسلاميون بصعوبة فى فترة ما بعد الكولونىالية. فلم يكن ثمة ما هو مقدس فى الزى الغربى فى حد ذاته. وقد فسر الإسلاميون الرغبة فى أن ترتدى كل النساء الزى الأوروبى على أنه دليل على

التوجه إلى رؤية الغرب «معياراً» يجب على «الباقين» جميعاً التطابق معه.. وأصبحت المرأة المحجبة على مر السنين رمزاً لتأكيد الذات ورفض هيمنة الثقافة الغربية. وباختيارها التخفى، كانت المرأة تتحدى معايير الغرب الجنسية الملزمة «بالعري». وعلى حين كان الرجال والنساء الغربيون يحاولون إخضاع الجسد لتحكم الإرادة البشرية في الملاعب وأماكن التدريب، وأن يتعلقوا بالحياة بمحاولتهم جعل أجسادهم تقاوم مسيرة الزمن والشيخوخة، يعلن الجسد الإسلامي المحجب ضمناً أنه خاضع للأوامر السماوية ومتوجه، لا إلى هذا العالم، بل إلى التسامي. وكثيراً ما يستعرض الرجال والنساء في الغرب سميرتهم التي اكتسبوها بتكلفة باهظة وأجسادهم الرياضية ذات الزوايا الحادة ويتباهون بها كدليل على التميز. في حين تؤكد الأجساد الإسلامية المغطاة بطبقات الملابس شديدة التشابه على المساواة التي تنص عليها الرؤية الإسلامية. ومن نفس المنطلق، يؤكد المسلمون على المثال القرآني الذي يعلى من شأن الجماعة مقارنة بالفردية الحدائثية الغربية. كما أن المرأة المسلمة المحجبة، وبأسلوب يشبه أسلوب مجتمعات شكري، تمثل ضمناً الجانب الأكثر قتامة للروح الحديثة.

ولا تعود المرأة التي تقرر ارتداء الزي الإسلامي بالضرورة إلى الخضوع الأنثوي قبل الحديث. فقد بينت دراسة للقياس أجريت في مصر عام ١٩٨٢ أنه، على حين أن النساء المحجبات كن، بشكل عام، أكثر محافظة من هؤلاء اللاتي فضلن الزي الغربي، فقد كانت نسبة عالية منهن آراء تقدمية بشأن قضايا النوع. فقد اعتقدت ٨٨٪ منهن في أهمية تعليم النساء (مقابل ٩٣٪ من غير المحجبات) واعتقدت نفس النسبة أن عمل المرأة خارج المنزل أمر مقبول، واعتزمت ٧٧٪ منهن العمل عقب التخرج (بالتقابل مع ٩٥٪، و٨٥٪ بالتتابع من غير المحجبات). إلا أن الهوة كانت أكثر اتساعاً في أمور أخرى فاعتقدت غالبية منهن (٥٣٪) في مساواة الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات السياسية، و٦٣٪ أن النساء يستطعن احتلال أرفع المناصب في الدولة، بينما اعتقدت ٣٨٪ فقط من المحجبات في المساواة في ظل الحياة الزوجية. ومن المثير، أن غالبية المحجبات (٦٧٪) وغير المحجبات (٥٢،٧٪) اعتقدن في وجوب أن تكون الشريعة هي قانون الدولة.

وتحتل المرأة في الشريعة، كما في حالة جميع القوانين قبل الحدائثية، مرتبة أدنى من الرجل. لكن، وكما تبين ليلي أحمد في كتابها «النساء والنوع في الإسلام»، فمثل كثير من الإصلاحيين في الماضي، تحاول هؤلاء النساء العودة إلى الإسلام «الحق» للكتاب والسنة، لا إلى فقه الأزهر العصر أوسطي، إذ إنهن يؤمن أن الإسلام «الحق» يبشر بالمساواة والعدالة بين الجميع بمن فيهم النساء. إلا أن ليلي أحمد توافق على أنهن قد يتعرضن للخضوع للغالبية الذكورية في ظل المؤسسة الدينية. وتبين أنه حينما تكون السلطة في أيدي نظام إسلامي، فعادة ما يؤدي هذا إلى تدهور مكانة المرأة. وعادة، يحدث حينما تسرع الأمور، أن تعتمد السلطة إلى قمع حالة التذمر بمنح الرجال سطوة أكبر على النساء. إلا أنه يظل صحيحاً أن الزى الإسلامي ليس دالاً على قلب أنشوى خانع. ويتجادل المفكر التركي نيلوفار حول هذه النقطة قائلاً إن المحجبات من النساء غالباً ما يكن مقاومات، مجاهرات بالرأى وعلى قدر جيد من الثقافة. وقد لعبت نساء محجبات كثيرات دوراً نشطاً، وبطولياً أحياناً، في الهجمة الأصولية الجديدة.

كما تبين ليلي أحمد أن الزى الإسلامي في مصر ليس عودة إلى الماضي. فلم يكن ثمة ما هو تقليدي بالنسبة للأزياء التي كانت النساء تفضلنها في السبعينيات والثمانينيات إذ إنها كانت «موضة» جديدة تماثل الأزياء الغربية (باستثناء الأكمام والتنانير) أكثر من تشابهها مع أزياء جداتهن. وحقاً، فمن الممكن النظر إليها كشيء «بين بين»، وكزى انتقالى إلى العصر الحديث. ففي تلك السنوات التحقت أعداد متزايدة بالجامعات. وكانت كثيرات ممن تخيرن الزى الإسلامي في الجامعات من أوائل فتيات الأسر اللاتي تخطين نطاق التعليم الأساسى، وكان معظمهن من بيئات ريفية. فأنت نيايهن نسخة «حديثه» من الثياب التي ترتديها النساء في أسرهن. ولدى مواجهتهن الحدائث المنذرة للمدينة الكبيرة، أى الكوزموبوليتانية والاستهلاكية الشرسة، وعدم المساواة، والعنف والتكدر السكانى، كان بالإمكان أن يقهرن بسهولة. فأتى الزى الذى تخيرنه إعلاناً عن تحركهن فى اتجاه أعلى، إلا أنه أمدهن أيضاً بشيء من الاستمرارية مع ما كن يرتدينه من قبل. وساعدتهن الهوية الإسلامية والجماعة التي ارتبطن بها على العبور الطقوسى، الذى كان من الممكن أن يكون صادماً، بيسر وسلام. وقد

شاهدنا في الماضي من قبل كيف ساعد الدين الناس على العبور من أسلوب حياة تقليدي إلى أيديولوجيا وأسلوب حياة حديثة. وقد يكون الزى الإسلامي بالنسبة للرجال والنساء إحدى هذه الاستراتيجيات.

إلا أن كل الانتقالات أليمة. فقد كانت الجماعة الإسلامية في الجامعات أثناء السبعينيات حركة شبابية ساعدت الشبان والفتيات على التعبير عن إحباطهم وتشوشهم. وغالباً ما تفجرت أعمال العنف. وكانت الجماعة الإسلامية في السبعينيات أقل الجماعات الإسلامية المصرية ميلاً إلى العنف. إلا أن بعض قادتها القتاليين كانوا يلجئون إلى أساليب الأذرع القوية من أجل التحكم في الجامعات. وقد قام المستعرب الأمريكي باتريك جافنى بدراسة عن الجماعة الإسلامية في جامعة النيبا التي كانت قد افتتحت حديثاً. ولم تكن الجماعات الطلابية قد تطورت لذا لم يوجد منافس للكوادر الإسلامية الصغيرة. وبدأ الأعضاء بتخصيص أماكن كمناطق إسلامية: مثل لوحات الإعلان، وأجزاء من الكافيتريات وبقاع ظليلة مزروعة. ثم تمكن المسلمون، بحلول عام ١٩٧٧، وباستعمال البلطجة في تعويق المنافسين، من السيطرة على اتحاد الطلبة. وأقاموا مسجداً على الأرض المشتركة بين كلية الآداب وكلية التربية حيث فرضوا على الطلبة تأدية الصلاة بين أوقات المحاضرات. وسيطر المسلمون، وفرشوا حصراً للصلاة، وأذاعوا الصلوات من مكبرات الصوت واحتل المنتحون منهم تلك المنطقة في جميع الأوقات يدرسون فيها القرآن.

ويمكن النظر إلى الانتهاك العدواني للحيز العلماني كمحاولة بدائية لإعادة تكوين الإسلام وزرعه في عالم متغيرين. فكان رفض الإسلاميين في النيبا قبول التوسع العالمي للمدنية الغربية ومحاولتهم تغيير الخريطة. ومثل تبني الزى الإسلامي، كان تغيير أرض مدنسة (دنيوية) إلى مسجد فعل تمرد على أسلوب حياة معلمة كلية. فلمدة قرن من الزمان، كان الحكم على المصريين وعلى شعوب العالم الثالث الأخرى أنهم ليس باستطاعتهم خلق تاريخ، أو إنشاء مجتمع حديث بأسلوبهم. والآن، حاول المسلمون إحداث شيء ما مهما صغر شأنه. فقد كان هذا هو احتجاجهم على مركزية النظرة الأوروبية، حيث كانوا يدفعون برءوسهم

خارج الهوامش إلى مراكز الضوء مرة أخرى. وكانت المنظمات الإسلامية الطلابية، مثل حركات الحقوق المدنية والإثنية، ومثل الحركات النسوية والبيئية، تكافح من أجل إعادة تأكيد هويتهم التي شعروا أنها قمعت بواسطة الحدائث الصناعية، ومن أجل التأكيد على حيوية المحلي والخاص، وضد تمائل المجتمع الكوكبي الذي فرضه الغرب. وهي أيضاً، مثل حركات ما بعد الحدائث الأخرى، فعل رمزي للقضاء على الكولونيالية ومحاولة لنزع المركزية من العالم، والبرهان على وجود إمكانيات أخرى للعالم. وعلى حين واصل السادات التحرك متقرباً من الغرب، ووصل إلى تسوية مع إسرائيل (التي ينظر إليها الإسلاميون على أنها ذات أمريكا الأخرى في الشرق الأوسط) أصبح الانفصال عن النظام شبه محتوم. وغدا طلبية النيا أكثر عنفاً. فقاموا بنهب الكنائس، وشنوا هجمات على من رفض ارتداء الزي الإسلامي من الطلبة. وفي فبراير عام ١٩٧٩ قاموا باحتلال مبنى الحكم المحلي لمدة أسبوع. وحينما أغلقت الشرطة أحد مساجدهم، أدوا صلاة الجمعة في منتصف الشارع على أحد الكبارى الهامة وأعاقوا المرور. وبعد ذلك، سيطروا على المدينة الجامعية واحتفظوا بثلاثين طالباً مسيحياً كرهائن. ثم وصلت قوات قوامها ألفاً جندي بعد يومين لقمع الانتفاضة.

وكان السادات قد دعم الجماعة الإسلامية حتى فبراير عام ١٩٧٧، إلا أنه غير رأيه بعد أحداث النيا. فقام بزيارة للصعيد في ١٤ أبريل عام ١٩٧٩ وألقى خطاباً على أعضاء هيئة التدريس في النيا وأسيوط أعلن فيه أن الحكومة لن تتساهل في إساءة استعمال الدين. ثم صدر قرار بحظر الاتحاد العام للجامعات المصرية وتم تجريد أصوله. إلا أن الجماعة كانت على درجة من الرسوخ بحيث إنها لم تختف. فقامت بتنظيم مظاهرات ضخمة في المدن الرئيسية المصرية بعد انتهاء شهر رمضان. وفي القاهرة احتشد خمسون ألف مسلم لتأدية صلاة العيد في ساحة قصر عابدين الرئاسي، وكانت تلك تذكرة ضمنية للسادات أن عليه أن يحكم بما أنزل الله. ووصل الأخ المسلم المرموق يوسف القرضاوي بالطائرة من الخليج لإلقاء خطبة في الحشود. وذكر السادات، الذي كان حينذاك منشغلاً بتكريس اهتمام كبير للحفاظ على مومياء رمسيس الثاني، أن مصر إسلامية لا فرعونية، وأن شباب الجماعة الإسلامية هم الممثلون الحقيقيون لمصر، وليس شارع الهرم أو

العروض المسرحية والأفلام السينمائية، وأن مصر ليست نساءً عازيات بل نساءً محجبات يتمسكن بأهداب الشريعة، وأن مصر أيضاً هي شباب أطلقوا لجامهم، وأرض الأزهر.

وكان للقمع نتائج المعتادة. فضعف الطلبة المتأسلمون جهودهم كي يحولوا الأحرام الجامعية إلى معاقل إسلامية. وتزايدت الهجمات على دور السينما والمسارح والمسيحيين وغير المحجبات من النساء. وتوسعوا في نشر دعوتهم خارج الجامعات. وأصبحت ثمة حالة حروب ضد النظام ومنطقه العقلاني المعلمن. ولم يسمح للجماعة بتجميع صفوفها، والتحق الكثير من أعضائها بالخلايا الجديدة المكرسة لأعمال الجهاد الأشد عنفاً.

وقد وقعت كل هذه الأحداث على خلفية من الثورة الإيرانية. فعلى حين كان السادات، في محاولته للتقرب من الغرب، يتحدث بزهو عن الشاه كصديق له، كان القتاليون الإسلاميون في مصر يجدون التقارير عن الشوار الإيرانيين الذين كانوا في سبيلهم للإطاحة بالشاه. وكانت الثورة الإيرانية فيما بين عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩ حداً فاصلاً. فأصبحت مصدر إلهام لآلاف المسلمين في جميع أنحاء العالم الذين كانوا قد شعروا لزم من طويل أن دينهم ظل يتعرض للهجمات. وبرهن انتصار الخميني على أن الإسلام لن يدمر، فقد كان باستطاعته أن يجابه القوى العلمانية الكبرى وينتصر. إلا أن الثورة الإيرانية أصابت كثيراً من الغربيين بالرعب والاستياء وبدا الأمر وكأن البربرية قد انتصرت على التنوير. وسيصبح الخميني وإيران في أعين علمانيين كثيرين نموذجاً لما هو خطأ أو حتى شرير في الدين، وليس من بين أقل أسباب هذا الشعور أن الثورة الإيرانية كشفت عن البغض الذي يكنه كثير من الإيرانيين للغرب عامة وأمريكا على وجه الخصوص.

وفي أوائل السبعينيات بدت إيران مزدهرة. وحقق المستثمرون الأمريكيون والنخبة الإيرانية مكاسب طائلة من الأعمال والصناعات الجديدة التي أوجدتها الثورة البيضاء. وكانت السفارة الأمريكية في طهران، وكأبعد ما تكون عن كونها مركزاً للتجسس (كما سادعى الثوريون) مركزاً لعمليات السمسة التي ترتب لقاءات بين الأثرياء الأمريكيين والأثرياء الإيرانيين. إلا أن الصفوة فقط هم من

استفادوا، وعلى حين ازداد ثراء الدولة، ازداد الشعب فقراً. وكان ثمة توجه استهلاكياً مفرطاً فجاً في القطاعات العليا من المجتمع، وفساد وحرمان بين البرجوازية الصغيرة والفقراء في المدن. ثم حدث تضخم هائل فيما بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ في أعقاب ارتفاع أسعار البترول، نظراً لانعدام فرص الاستثمار للجميع باستثناء شديدي الثراء. وبلغ عدد العاطلين مليون فرد، وأفلس كثير من صغار التجار بسبب فيضان الوارد من الملح الأجنبية. وبحلول عام ١٩٧٧، بدأ التضخم يؤثر في الأغنياء. ووسط هذا المناخ من السخط والأسى، نشطت المنظمات الفدائيتان الرئيسيتان، وتم اغتيال عسكريين ومستشارين أمريكيين. وعم الاستياء من الأمريكيين في إيران الذين كانوا يتربحون من تلك الورطة الكارثية. وأصبح نظام الشاه، في تلك السنوات، أكثر طغياناً وشمولية.

وانجهدت أنظار كثيرين من الإيرانيين الساخطين إلى العلماء الذين استجابوا للأزمة بأساليب مختلفة. ففي مدينة قم، عارض آية الله شريعات ماداري، أرفع المجتهدين مقاماً، أية مواجهة سياسية مع النظام، رغم تطلعه للعودة إلى دستور عام ١٩٠٦. أما آية الله طلقاني الذي كان قد سجن عدة مرات لمطالبته بالتطبيق الصارم للدستور واحتجاجه على إفراط ممارسات النظام، فعمل إلى جانب بعض الإصلاحيين من خارج المؤسسة الدينية مثل مهدي بازارجان وأبو الحسن بنى صدر اللذين كانا يريدان رؤية جمهورية إسلامية في إيران، وليس حكماً لرجال الدين ولم يعتقد الطلقاني بوجود دور مميز لرجال الدين في الحكومة، ولم يوافق بالتأكيد على رؤية الخميني الخاصة بولاية الفقيه. إلا أن الخميني ظل رمز مقاومة النظام الشاهية التي لا تخضع. ثم نظم طلبة الفايزية في يونيو عام ١٩٧٥ مظاهرة لإحياء ذكرى القبض على الخميني عام ١٩٦٣. وهجمت الشرطة على المبنى واستعملت الغازات المسيلة للدموع وقتلت أحد الطلبة بإلقائه من فوق السطح. وأغلقت الحكومة المدرسة. وظلت مبانيتها الصامتة الخالية رمزاً قوياً لعداء الشاه الأساسي لأي تفوه بالاحتجاج ومعارضته للدين. وبهذا، تهاوى الشاه في الخيلة الشعبية مع شخص يزيد عدو العقيدة وقاتل الشهيد الحسين وأيضاً كعدو للخميني الذي أسماه الناس حينذاك بالإمام الجديد.

إلا أن قبضة النظام تراخت بعض الشيء في عام ١٩٧٧ وبدا وأنه قد انحنى إزاء الضغط العام. وكان جيمى كارتر قد انتخب رئيساً للولايات المتحدة في العام السابق وأدت حملته من أجل حقوق الإنسان بالإضافة إلى تقرير لمنظمة العفو الدولية عن حالة محاكم الشاه ومعتقلاته، إلى أن يبدي الشاه ميلاً للإتيان ببعض التنازلات في مجابهة حالة التذمر السائدة. ولم يكن ثمة تغيير حقيقي، إلا أنه حدث انفراج في قوانين الرقابة وغمرت الأسواق الأدبيات التي كشفت عن حالة السخط في كل قطاعات المجتمع. فقد كان الطلبة غاضبين لتدخل الحكومة في الجامعات؛ واحتج المزارعون على المواد الزراعية المستوردة التي زادت من إفقار الريف؛ وكان رجال الأعمال قلقين من التضخم والفساد، والغامون من القرارات التي قللت من شأن المحكمة العليا. بيد أنه لم يكن هناك بعد دعوة للثورة. فقد تبع معظم العلماء الإيرانيين دعوة شريعات ماداري واتفقوا على الخط التصوفي السلمى التقليدى. ولم يكن رجال الدين، بل كُتّاب إيران هم من قاموا بالاحتجاجات البليغة ضد الحكومة عام ١٩٧٧. فمن ١٠ إلى ١٩ أكتوبر ألقى ستون من الشعراء والكُتّاب الإيرانيين قراءات لأعمالهم على آلاف من الطلبة في معهد جوتة. ولم يتدخل السافاك في تلك الجلسات رغم عدااء الأدباء المعلن للنظام. وبدا الأمر وكأن الحكومة قد تعلمت استيعاب الاحتجاجات السلمية.

ولم يستمر هذا الزمن الجديد. فقد كان من الواضح أن الشاه قد شعر أن الزمام قد بدأ يفلت من يده عقب تلك القراءات الشعرية وتم القبض على بعض الخصوم المعروفين. وفي ٣ نوفمبر عام ١٩٧٧ توفي مصطفى نجل الخمينى بطريقة غامضة في العراق، وكان من شبه المؤكد أن السافاك هو الفاعل. ومرة أخرى تلبس الشاه دور يزيد. وكان الخمينى قد أحيط بالفعل بهالة شعبية وبدأت سمات من التشابه بينه وهو فى المنفى، وبين الإمام الغائب؛ والآن، بدأ مثل الحسين الذى قتل ابنه حاكم طاغ. وتجمع الناس فى كل أنحاء إيران فى حداد على مصطفى بن الخمينى، وهم ينتحبون ويضربون على صدورهم بالأسلوب التقليدى. وهاجمت الشرطة تلك الجموع وألقت القبض على البعض، وضُرب آخرون أثناء القراءات الشعرية التى أقيمت فى طهران فى ١٥ و١٦ و٢٥ نوفمبر. إلا أنه لم يكن ثمة دلالة بعد على انتفاضة عامة. وفى النجف، ظل الخمينى، الذى اعتاد أن يدعو مصطفى «نور

عيني، صامتاً.

وفي تلك الأثناء، أي في ١٣ نوفمبر عام ١٩٧٧، توجه الشاه إلى الولايات المتحدة لإجراء مباحثات مع كارتر. وكان الطلبة الإيرانيون الذين يدرسون في الجامعات الأمريكية؛ يتدفقون إلى خارج البيت الأبيض ويرددون شعارات مضادة للشاه. وفي عشاء أقيم على شرف الشاه ألقى كارتر خطاباً مؤثراً عن أهمية العلاقات الخاصة بين إيران والولايات المتحدة أسمى فيه إيران «جزيرة الاستقرار في هذا الركن الهادر من العالم». وفي ٣١ ديسمبر، قطع كارتر رحلته إلى الهند ليقوم بزيارة خاطفة لطهران عبر فيها مرة أخرى عن دعمه الحار للنظام. واستمر كارتر، حتى النهاية، يعبر عن ثقته في الشاه. وتصادف توقيت زيارة الشاه مع مناسبة شهر محرم المقدس، حيث تحتل مأساة كربلاء مقدمة تفكير كل الإيرانيين. أما في هذه السنة، فكان الجميع يفكرون أيضاً في الخميني. وكان الشاه قد حظّر مراسم تأبين مصطفى الخميني التقليدية التي تقام عادة بعد الوفاة بأربعين يوماً. وحينما قام كارتر، في تلك اللحظة الحاسمة، برحلة خاصة للتكريس لحكم الشاه، كانت خطوته هذه تلبساً تاماً منه لدور الشيطان الأعظم.

صدم الأمريكيون لدى سماعهم بلدهم بوصف بأنه شيطاني بعد الثورة. فحتى هؤلاء الذين كانوا يعلمون عن استياء معظم الإيرانيين من الولايات المتحدة منذ انقلاب السى آى إيه عام ١٩٥٣ شعروا بالنفور والغضب من هذه الصور الشيطانية ورأوا أنه مهما بلغت أخطاء السياسة الأمريكية فهي لا تستحق الإدانة بهذا الأسلوب. وأكد هذا الاعتقاد السائد أن الثوار الإيرانيين كانوا جميعاً متعصبين غير متوازنين ومصابين بالهستيريا. إلا أن معظم الغربيين أساءوا فهم صورة الشيطان الأعظم. فالشيطان في المسيحية كائن ذو شر قاهر على حين أنه في الإسلام كائن يمكن ترويضه والتغلب عليه حتى إن القرآن الكريم يومئ أنه حتى الشيطان يمكن أن يتلقى المغفرة في اليوم الآخر، مما يدل على الثقة في قوة الخير الإلهي الغلاب. والذين أسموا أمريكا الشيطان الأعظم من الإيرانيين لم يقصدوا بالقول أن شر الولايات المتحدة شر شيطاني (بالمعنى المسيحي)، بل قصدوا شيئاً أكثر تحديداً فالشيطان الذي يفوق البشر في مخيلة الشيعة الشعبية مخلوق مثير

للسخرية لا يستطيع، بشكل مزمّن، تقدير القيم الروحانية للعالم غير المرئي. ففي إحدى القصص، يقال إن الشيطان اشتكى إلى الله تمييزه للبشر، إلا أنه خُدع بسهولة حينما منحه الله ميزات أقل قدراً بكثير. حيث أوكل إليه السطوة على المنجمين، وأصبحت البازارات مسجده والحمامات العامة موطنه. وأبهجه ذلك. وبدلاً من أن يسعى إلى الله أخذ يسعى إلى الخمر والنساء. ومن ثم، فهو مخلوق تافه بشكل لا يبرأ منه لأنه يوقع به دائماً في مناطق العالم الظاهر، ولا يستطيع رؤية بعد أعمق، أو أكثر أهمية، للوجود. وكانت البارات، والكازينوهات، ومنطقة شمال طهران المسممة بالغرب العلماني، تمثل المنطق الأمريكي الذي كان يبدو أنه يتجاهل، إزادياً، الحقائق الباطنة، التي هي وحدها، ما يفضي المعنى على الحياة. هذا بالإضافة إلى أن أمريكا «الشيطان» قد أغرت الشاه بعيداً عن القيم الحقة للإسلام وجذبت به إلى حياة العلمانية التافهة.

وتحرك الشيعة الإيرانيين دائماً عاطفتان: عاطفة العدالة الاجتماعية وعاطفة الغيب. وعلى حين أن الشعوب الغربية طورت، على مر القرون، منطقاً عقلياً تركز كلية على العالم الطبيعي الذي تدركه الحواس، احتضن الشيعة الإيرانيون، مثل غيرهم من الشعوب ما قبل الحديثة، حساً بالعالم الباطن تستدعيه العبادات والأسطورة. وخلال الثورة البيضاء، حصل الإيرانيون على الكهرباء والمواصلات الحديثة، إلا أن الإحياء الديني في البلاد، أوضح لأناس كثيرين، أن تلك الإنجازات الظاهرة كانت غير كافية. فقد كان التحديث سطحياً ومتطرفاً في سرعته. وكان إيرانيون كثيرون مازالوا جوعى للباطن حيث شعروا أنه لا قيمة لحياتهم بدونه. وكما بين الأنثروبولوجي الأمريكي، ويليام بيمان، أن الإيراني الذي يفاخره الحس أنه قد أوقع به على السطح المادى للحياة يشعر وأنه قد فقد روحه. والدافع إلى حياة داخلية نقية مازال ذا قيمة عظمى في المجتمع الإيراني لدرجة أن أعظم ما يمدح به شخص هو أن يقال له إن «باطنه أو باطنها وظاهره أو ظاهرها متطابقان». ويشعر إيرانيون كثيرون بالضيق إذا فقدوا الشعور القوي بما هو روحاني. كما اقتنع البعض أثناء الثورة البيضاء أن مجتمعهم المسمم بالغرب قد سمته أيضاً المادية والبضائع الاستهلاكية ووسائل الترفيه الغربية، وفرض قيم أجنبية، والأكثر من هذا، هو أن الشاه بدأ مصمماً، بمساعدة الولايات المتحدة، على تدمير الإسلام

مصدر روحانية الأمة. فقد نفى الخميني، وأغلق المدرسة الفايزية، وأهان رجال الدين، واقتطع من مصادر دخولهم، وقتل طلاب الفقه.

ولم تكن الثورة الإيرانية مجرد ثورة سياسية. فمما لا شك فيه أن نظام الشاه الشمولي المتعسف والمأزق الاقتصادي كانا من الأمور الحاسمة: ولم تكن لتحدث ثورة في غيابها. وقد حلق كثيرون من الإيرانيين، فيما بعد، بالعلماء مجرد التخلص من الشاه. ولم تكن الثورة لتنجح بدون هؤلاء. بيد أن الثورة كانت ثورة على المنطق العلماني الذي استبعد الدين حتى إن كثيراً من الإيرانيين شعروا أن ذلك المنطق كان يفرض عليهم بغير إرادتهم. وتم التعبير عن هذا بشكل تصويري بأن سميت الولايات المتحدة الشيطان الأعظم. وقد اعتقد الكثيرون، خطأً كان أم صواباً، أنه لولا دعم الولايات المتحدة الحار للشاه، لم يكن له أن يسلك السلوك الذي انتهجه. وكانوا يعلمون أن الأمريكيين يفخرون بنظامهم العلماني الذي يفصل الدين عن الدولة بشكل إرادي. وكانوا يعلمون أيضاً أن غربيين كثيرين يعتقدون أن التركيز القصرى على الظاهر أمر ضروري جدير بالثناء. والنتيجة، كما رأوها، حياة ملذات ليلية غاوية في شمال طهران. وأيضاً كان الإيرانيون يعلمون أن كثيرين من الأمريكيين متدينون إلا أن عقيدتهم غير مفهومة لهم. فمثلاً، لم يكن «باطن» و«ظاهر» جيمى كارتر متماثلين. كما استعصى عليهم فهم استمرار الرئيس الأمريكى في دعم حاكم كان قد بدأ في ارتكاب المذابح ضد شعبه بحلول عام ١٩٧٨. وقال آية الله منتظري في حوار معه بعد الثورة «لم نتوقع أن يدافع كارتر عن الشاه لأنه رجل متدين رفع شعار الدفاع عن حقوق الإنسان. فكيف يتأني له، وهو الإنسان الورع، أن يدافع عن الشاه؟»

ولم يكن باستطاعة كارتر أن يتلبس دور الشرير بشكل كامل أكثر مما فعله لدى زيارته الشاه ليلة رأس السنة خلال شهر محرم المقدس من أجل تعزيز نظامه. وبدأت الولايات المتحدة، في السنة التالية المضطربة، السبب الأول في مشاكل إيران الروحانية والاقتصادية والسياسية. وكانت كتابات الحائض في الشوارع تهاى بين كارتر ويزيد وبين الشاه وشمير، قائد الجيش الذي بعث به يزيد ليقتل الحسين وجيشه الصغير وأيضاً، في سلسلة من الرسومات صور الخميني كموسى

والشاه كفرعون، وكازتر الصنم الذى عبده فرعون/ الشاه فقد اعتقد الناس أن أمريكا أفسدت الشاه، وأن الخمينى، الذى كان النور الشيعى يغمره أكثر من أى وقت مضى، يمثل البديل الإسلامى للديكتاتورية غير المقدسة القائمة.

وفى آخر شهر محرم لعام ١٩٧٨، تلبس الشاه مرة أخرى دور عدو الشيعة. فقد نشرت صحيفة إطلاعات شبه الرسمية، مقالاً قُذِف فيه الخمينى ودعته فيه مغامراً دون عقيدة، وادعت أنه على صلة بمراكز الكولونىالية، وأنه قد عاش حياة مبتذلة وعمل جاسوساً لبريطانيا، وأنه حتى ذلك الحين، كان فى خدمة البريطانيين الذين يسمون إلى تفويض الثورة البيضاء. وكانت تلك الحملة البذيئة الفاجرة خطأ قاتلاً من قبل الشاه. فخرج فى اليوم التالى أربعة آلاف طالب إلى شوارع قم وطالبوا بعودة دستور ١٩٠٦ وحرية التعبير والإفراج عن المعتقلين السياسيين وإعادة فتح المدرسة الفايزية والسماح للخمينى بالعودة إلى إيران. وكانت النتيجة مذبحة لهم إذ فتحت الشرطة نيرانها على المتظاهرين العزل. وطبقاً للعلماء، لاقى ٧٠ طالباً حتفهم (رغم أن النظام ادعى أن عشرة فقط قد قتلوا). وكان ذلك أكثر الأيام دموية فى إيران منذ اضطرابات عام ١٩٦٣. أما بالنسبة للشاه، فكان بداية النهاية. وكما أوضح ويليام بيتمان، فباستطاعة الإيرانيين التفاوض عن الكثير، بيد أنه بإمكان فعل خيانة واحد التسبب فى العلاقات الشخصية والسياسية وعلاقات الأعمال. وبمجرد تخطى هذا الخط، لا يصبح ثمة طريق للعودة. وبالنسبة للملايين الإيرانيين، كان الشاه قد تخطى هذا الفاصل حينما أمر السائق بإطلاق النار على المتظاهرين فى قم. واستجاب الإيرانيون للمذبحة بغضب خالص. وبدأت الثورة.

وكان المفكرون والكتّاب والمحامون ورجال الأعمال قد قادوا المعارضة فى الأشهر الأخيرة السابقة. إلا أن القيادة انتقلت إلى العلماء فى يناير عقب هجمة الشاه الشرسة على الطلبة. وكانت تلك المذبحة صادمة لدرجة أدت إلى أن يتخلى آية الله شريعات مادارى عن روحانيته المعتادة ويدين إطلاق النار بأكثر العبارات عنفاً. وكان هذا بمثابة إشارة إلى العلماء فى جميع أنحاء البلاد. ولم يكن ثمة ما أعدت له الخطط والترتيبات المسبقة. ولم يحدث أن أصدر الخمينى تعليمات

استراتيجية من النجف، إلا أنه كان من الواضح المحرك غير المرئي للثورة وملهمها منذ نشر مقالة إطلاعات. وتركزت المعركة حول مراسم الحداد التقليدية في مناسبة اليوم الأربعين بعد الوفاة. وكانت تلك المناسبات تنقلب إلى مظاهرات ضد الحكومة تقع فيها مزيد من أعمال القتل، لتنظم بعد أربعين يوماً آخرين مظاهرات أخرى في ذكرى من استشهدوا، وهكذا دواليك. واكتسبت الثورة زخماً وتدافعاً لا سبيل لوقفهما، وكانت الأيام الأربعون التي تفصل المظاهرات عن بعضها تتيح الوقت للقادة لنشر الأنباء. وفي الموعد المحدد، كانت الجماهير تعلم بدقة مواعيد التجمع دون أية حاجة للتخطيط المنظم أو الإعلان.

وهكذا، وفي ١٨ فبراير، أي بعد مذبحة قم بأربعين يوماً، تدفقت الحشود التي أتت لتحسي الذكرى، يقودها العلماء وتجار البازارات في شوارع مدن إيران الرئيسية كي يندبوا الموتى. وكانت الطالبات المحجبات، كدلالة مهمة عن الانفصال عن النظام، ونساء البازارات اللاتي يرتدين الشادورات، كثيراً ما يقدن الموكب كما لو كن يتحدين الشرطة أن تطلق النيران عليهن. إلا أن الشرطة أطلقت النيران، وسقط مزيد من الشهداء. وكانت المواجهة أكثر عنفاً بشكل خاص في مدينة تبريز حيث بلغ عدد الضحايا من المتظاهرين ما يربو على مائة شهيد وألقي القبض على ستمائة شخص. وهناك أيضاً، انفصل بعض الشباب عن الموكب وهاجموا دور السينما والبنوك ومتاجر الخمور (رموز الشيطان الأعظم) لكنهم لم يهاجموا الأشخاص. وبعد مرور أربعين يوماً آخرين، أي يوم ٣٠ مارس، خرجت الجماهير إلى الشوارع لإعلان الحداد على شهداء تبريز. وبلغ عدد الضحايا في هذه المناسبة ما يقرب من مائة شخص قتلوا برصاص الشرطة في مدينة يزد وهم يغادرون المساجد. وفي ٨ مايو خرجت المسيرات في ذكرى الأربعين لشهداء يزد. وتكدست السجون بالمعتقلين السياسيين، وكشف عدد القتلى عن العدوان الفاضح لنظام انقلب على شعبه.

وكان هذا هو اليوم الأعظم للأحزان. فحمل المتظاهرون اللافئات التي كتب عليها «كربلاء في كل مكان» و«عاشوراء في كل يوم». ويعنى لفظ شهيد بالعربية «من يشهده»، كما هو الحال في المسيحية: أي أن المتظاهرين الذين قتلوا كانوا

شهوداً على وجوب حرب الطغاة مثلما فعل الإمام الحسين، وأيضاً على وجوب الدفاع عن قيم العالم الروحاني غير المرئي الذي بدأ النظام مصمماً على انتهاكها. وتحدث الناس عن الثورة كخبرة تطهير وتغيير، وشعروا أنهم كانوا يظهرون أنفسهم من سم تسبب في إعاقتهم، وأنهم بهذا الجهاد، يعودون إلى أنفسهم. ولم تكن هذه ثورة تستغل الدين لأسباب سياسية. بل إنها استقت معناها وتوجهاتها من الأساطير والروحانيات الشيعية، خاصة بين الفقراء وغير المتعلمين الذين لم تحركهم الأيديولوجيا العلمانية الخالصة.

وخلال شهري يونيو ويوليو أتى الشاه ببعض التنازلات، فوعد بإجراء انتخابات حرة وإعادة نظام تعددية الأحزاب. وهذات المظاهرات أثناء تلك الفترة وسادت حالة من الكمون. وافترض المفكرون والعلمانيون من ذوى التعليم الغربي الذين لم يكونوا قد شاركوا في مواكب الحداد، رغم أنهم دعموا المتظاهرين ضد النظام، أنه قد تم كسب المعركة. إلا أنه في يوم ١٩ أغسطس الذي يوافق الذكرى الخامسة والعشرين لاستعادة أسرة بهلوى للعرش عام ١٩٥٣، حدثت هجمة بالمواد الحارقة على مبنى سينما ركس في عبدان قتل فيها أربعمائة شخص ووجه الاتهام فوراً للسافاك. واشترك في تشييع الجنازة عشرة آلاف شخص وهم ينشدون «الموت للشاه! أحرقوه». وفي لوس أنجيليس وواشنطن ولاهاي، نظم الطلبة الإيرانيون مظاهرات ضخمة ضد الشاه. وأتى الشاه بمزيد من التنازلات، وأصبحت مناقشات المجلس أكثر حرية وسمح بالمظاهرات النظامية، وأغلقت بعض الكازينوهات، وأعيد التقويم الإسلامي.

إلا أن الوقت كان قد تأخر. فخلال الأسبوع الأخير في رمضان، حين يقضى الناس معظم الوقت في التهجد في المساجد، قامت مظاهرات في أربع وعشرين مدينة إيرانية كان ضحاياها ما بين خمسين ومائة قتيل. ويوم ٤ سبتمبر، آخر أيام شهر رمضان، قامت مظاهرة سلمية ضخمة في طهران. وسجد الناس مصليين في الشوارع، وقاموا بتوزيع الأزهار على الجنود. ولأول مرة، لم يفتح الجيش والشرطة النيران على المتظاهرين. وفي هذه المناسبة، حدث تطور هام حيث بدأت الطبقات الوسطى تشارك في المظاهرات. وسارت مجموعة صغيرة من المتظاهرين في

الشوارع وهم يرددون «الاستقلال، الحرية، الحكومة الإسلامية». وفي ٧ سبتمبر، سار عرض ضخمة من شمال طهران إلى مبنى البرلمان وهم يحملون صوراً ضخمة للخميني وشريعته، وطالبوا بنهاية حكم بهلوي وبالحكومة الإسلامية. وكان المفكرون من خارج المؤسسة الدينية مثل شريعته وبازرجان وبنى صدر قد أعدوا النخبة ذات التعليم الغربي لإمكانية حكم إسلامي حديث. ورغم اختلاف آرائهم عن آراء الخميني كان بإمكان ليبرالي الطبقات الوسطى أن يروا أن له دعماً قاعدياً لم يتمكنوا هم منه أبداً، وكانوا على استعداد لمشاركته كي يتخلصوا من الشاه. فقد كانت تجربة الحكم العلماني في إيران كارثية، وكانت الطبقات الوسطى على استعداد لتجربة شيء مختلف.

وانتهى الأمر بالنسبة للشاه بمجرد هجر الطبقات الوسطى له. ولابد وأنه أدرك الخطر. فأعلن قانون الطوارئ في السادسة من صباح الجمعة الموافق ٨ سبتمبر. وحظرت التجمعات الكبيرة من أي نوع. إلا أن العشرين ألف متظاهر الذين كانوا قد تجمعوا في ميدان جاله مسيرة سلمية لم يعرفوا بهذا. وحينما رفضوا التفرق، فتح الجنود النيران عليهم مما أدى إلى مقتل ما يقرب من تسعمائة شخص. واندفعت الحشود الغاضبة إلى الشوارع عقب المذبحة. وأقاموا المتاريس وأحرقوا المباني بينما كان الجنود يطلقون النيران عليهم من الدبابات. وفي الساعة الثامنة من يوم الأحد الموافق ١٠ سبتمبر، هاتف الرئيس كارتر الشاه من كامب دايفيد ليؤكد له دعمه. وبعد ساعات قليلة صادق بيان من البيت الأبيض على حدوث المكالمات وأكد على العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإيران. وقال التقرير إنه رغم أسف الرئيس لما حدث من قتل في ميدان جاله، فإنه يأمل أن تستمر سيرورة الليبرالية السياسية التي بدأها الشاه.

إلا أنه حتى دعم الشيطان الأكبر لم يعد بإمكانه إنقاذ الشاه، وقام عمال البترول بالإضراب، وبنهاية أكتوبر، تقلص الإنتاج إلى نسبة ٢٨٪ من معدله السابق. وبدأ الفدائيون التي كانت هجماتهم قد هدأت في السنوات الأخيرة في الهجوم على القادة العسكريين والوزراء، وفي ٤ نوفمبر، أنزل الطلبة قنصل الشاه عن قاعدته في مدخل جامعة طهران. وأغلقت البازارات يوم ٥ نوفمبر، وهاجم

الطلبة السفارة البريطانية ومكاتب شركات الطيران الأمريكية، ودور السينما
ومتاجر الخمور، وفي هذه المرة لم يتدخل الجيش.

وكانت حكومة العراق قد قامت بطرد الخميني، استجابة لضغط من طهران،
حيث انتقل للإقامة في باريس. وهناك زاره ممثلون للجبهة القومية التي كان قد تم
إحيائها، وأصدروا بياناً بأنهم، والخميني، ملتزمون بإعادة دستور عام ١٩٥٦.
وفي ٢ ديسمبر، ومع اقتراب محرم، أصدر الخميني تعليماته بأن يقوم الناس
بالتظاهر ضد النظام بدلاً من عرض مشاهد الآلام وإقامة الروضات وتسيير المراكب
في ذكرى استشهاد الحسين. وكانت الإمكانيات الراديكالية لتلك الطقوس الدينية
قد وصلت حد التمجيد الأقصى. فقام الرجال، في الليالي الأولى من محرم،
بارتداء أكفنتهم، رمزاً لاستعدادهم للاستشهاد، وهزلوا في الشوارع متحدين
حظر التجول الحكومي. وردد آخرون شعارات معادية للشاه من مكبرات الصوت
على أسطح المنازل. وادعت محطة الب ب سي أن سبعين شخصاً قد قتلوا على
أيدي الشرطة والجيش في تلك الأيام القلائل فقط. وفي ٨ ديسمبر، تجمع ستة
آلاف شخص عند مقبرة بجست. إي. زهرة جنوب طهران، حيث دفن الكثير من
شهداء الثورة وأخذوا يصيحون «الموت للشاه». وسار عشرون ألف شخص في
شوارع أصفهان، ثم قاموا بمهاجمة البنوك ودور السينما والعمارات التي يسكنها
الفيون الأمريكيون. ثم قاد آية الله طلقاني الذي كان قد تم الإفراج عنه لتوه يوم ٩
ديسمبر، أي ليلة عاشوراء، مسيرة سلمية رائعة، طافت بشوارع طهران لمدة ست
ساعات واشترك فيها ما بين ٣٠٠,٠٠٠ ونصف مليون شخص ساروا بهدوء في
مجموعات عرضية مؤلفة من أربع أشخاص. وخرجت مظاهرات سلمية أخرى في
تبريز وقم وأصفهان والمشد.

وفي يوم عاشوراء ذاته، حدثت مسيرة أكبر في طهران استمرت ثماني ساعات
وشارك فيها ما يقرب من مليوني شخص. وحمل المتظاهرون أعلاماً خضراء
وحمرات وسواد ترمز على التوالي إلى الإسلام والشهادة والشيعنة وتخللها لافتات
كتب عليها «سنقتل طاغية إيران» و«سندمر قوة اليانكي» (لفظ دارج يعني
الأمريكيين). وكان ثمة ثقة تنامي، أن شعب إيران، وقد اتحد كما لم يسبق له

من قبل ، سيتمكن بالفعل من التخلص من دولة بهلوى . وشعر الكثيرون وكان الإمام الحسين نفسه كان يقردهم إلى المعركة فى يوم عاشوراء ذلك ، وأن الخمينى كان يرشدهم عن بُعد مثل الإمام الغائب . وتم اتخاذ قرار بعد المظاهرة ، فقد دعى الخمينى لأن يصبح القائد الجديد لإيران ، وحث الإيرانيون على التعاون معاً حتى يستطيعوا الإطاحة بالشاه .

وبعد ثلاثة أيام ، حاول الجيش تنظيم مظاهرة مؤيدة للشاه كانت فيها المصادمات بين النوار والعسكر أشد عنفاً . وقام الشاه بجهد أخير للتهدئة ، حيث عين شاهبور بختيارى ، وهو لىبرالى معروف ، لتكوين حكومة دستورية . ووعده الشاه بحل السافاك وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وإحداث تغييرات جذرية فى سياساته الاقتصادية والخارجية . إلا أن هذا جاء متأخراً عاماً كاملاً : فقد كان الناس قد سمعوا وعوداً كثيرة أتت تحت ضغط الشدة ، لدرجة أن العروض الجديدة لم تلق أية مصداقية . وأعلن الخمينى يوم ٣٠ ديسمبر (الذى وافق الذكرى الأولى لمذبحة قم حسب التقويم الإسلامى) يوماً للحداد . وسقط مزيد من القتلى فى المشد وطهران وكازرين . وعرضت صور الشهداء الأواخر إلى جانب صور الخمينى . وفى يوم ٢٣ ديسمبر ، حينما قام الجنود بتمزيق صور الخمينى فى المشد ، قامت مشادة قتل فيها ١٢ مدنياً . وفى الحال ، تجمعت الحشود فى تلك البقعة وساروا باتجاه الجنود بقيادة شباب كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم . وبدأ الجيش فى التراجع ، بينما كان الجنود يوجهون الطلقات إلى الأرض ليحولوا بينهم وبين المتظاهرين . وفى اليوم التالى ، خرجت عشرات الآلاف إلى الشوارع للاحتجاج على أعمال القتل تلك .

وانتهى الأمر بحلول منتصف شهر يناير حيث تفاوض رئيس الوزراء بختيار فى أمر رحيل الشاه الذى أعلن أنه رحيل مؤقت ، منعاً للإحراج . وسافرت العائلة المالكة إلى مصر حيث آواهم أنور السادات . وحاول بختيار الحلولة دون الثورة بأن أمر بالإفراج عن المعتقلين السياسيين وحل السافاك ومنع البترول عن إسرائيل وجنوب إفريقيا ، ووعدهم بإعادة النظر فى العقود الأجنبية وخفض نفقات التسليح بدرجة كبيرة . إلا أن الوقت كان قد فات . فقد كانت الجماهير تنادى بعودة الرجل

الذى أسموه إمامهم. وفي ١ فبراير عام ١٩٧٩ أجبر بختيار على دعوة الخميني للعودة.

وكان وصول الخميني إلى إيران أحد تلك الأحداث الرمزية التي تماثل الهجوم على الباستيل والتي تبدو وأنها تغير العالم إلى الأبد. فالنسبة للبراليين العلمانيين المتزمين داخل وخارج إيران، كانت تلك لحظة مظلمة، وانتصاراً للشعوذة على العقلانية. إلا أنه بالنسبة لمسلمين كثيرين، سنين وشيعيين، والذين كانوا لمدة طويلة قد خشوا القضاء على الإسلام، فقد بدا هذا انقلاباً مضيئاً. أما بالنسبة لبعض الشيعة الإيرانيين، فقد بدت عودة الخميني معجزة، وكما هو محتم، ماثلت في مخيلتهم عودة الإمام الغائب. وبينما كان الخميني يركب سيارته في أنحاء طهران، تعالت صيحات الجماهير مرودة «الإمام الخميني»، وكلهم ثقة بانبثاق عهد جديد من العدالة، وأثار استعمال لقب الإمام غضب المجتهدين من ذرى المراتب العليا وأكدوا رسمياً أن الخميني ليس هو الإمام الغائب. بيد أنه، وبغض النظر عن الخط الرسمي، فقد كان الخميني بالنسبة للملايين إماماً إلى يوم وفاته إذ بدت حياته وتاريخه برهاناً ساطعاً على أن المقدس كان حاضراً ونشطاً في التاريخ رغم كل شيء. ومثل الثورة نفسها بدا الأمر وكان الخميني قد جعل من الأسطورة القديمة حقيقة واقعة.

وكان طه حجازي قد نشر قبل عودة الخميني بيومين قصيدة بعنوان «يوم يعود الإمام» عبرت عن توق كثير من الإيرانيين، وتطلع فيها إلى الإخوة العالمية. فلن يكذب أحد، ولن تكون هناك حاجة لإغلاق الأبواب خوفاً من اللصوص، وستتفاسم الجميع الطعام:

الإمام يجب أن يعود

حتى يتبوا الحق العرش

وحتى يمحي الشر والخيانة والكراهية

من وجه الزمن

حين يعود الإمام

ستتحرر إيران - هذه الأم الجريحة المنكسرة

إلى الأبد

من قيود الطغيان والجهل

وأغلال النهب والتعذيب والمعتقل

وكان الخميني يحب ترديد حديث الرسول عن العودة من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، أى أن المعركة الأشد صعوبة وحسماً وصرامة ليست جسدية بل تمثل فى قهر النفس، وتنفيذ العدالة والقيم الإسلامية الحققة فى المجتمع. ولا بد أن الخميني قد أدرك، لدى عودته إلى طهران، أن الجهاد الأصغر قد انتهى وأن الجهاد الأعظم، الأشد مشقة بقدر لا منناه، كان وشيك البدء.

أما الإحياء الأصولي فى الولايات المتحدة فى أواخر السبعينيات فكان أقل إثارة بكثير حيث لم يكن البروتستانت الأمريكيون بحاجة للإتيان بمثل تلك الأفعال المتطرفة. فلم يكونوا كاليهود مطاردين بذكريات عن الهلوكوست والإبادة، ولا ضحايا قمع سياسى واقتصادى مثل المسلمين. فقد شعروا بالاغتراب عن الثقافة الحديثة العلمانية، إلا أن قادتهم، على الأقل، كانوا يتمتعون بالازدهار والنجاح الذى سيصبح، فيما بعد، إحدى مشاكلهم. فرغم اقتناعهم بأنهم غرباء، كان الأصوليون البروتستانت يشعرون بالانتماء الشديد فى أمريكا. ففى الولايات المتحدة، كانت الديمقراطية مؤسسة تأسيساً راسخاً، وكان باستطاعتهم الجهر بآرائهم بحرية دون خشية القمع، وأيضاً استعمال المؤسسات الديمقراطية من أجل دعم قضيتهم. إلا أن الأصوليين، كما رأينا، بدءوا يشعرون فى أواخر السبعينيات أن عليهم أن يكونوا نشطاء سياسياً بدلاً من الانسحاب من المجتمع، كما كانت سياستهم طوال ما يقارب الخمسين عاماً. وشعروا أن لديهم فرصة التأثير ووضع أمريكا على المسار القويم. وأصبح من الواضح إمكان تعبئة جماهير من الناخبين الإنجلييين بشأن قضايا مثل قيم الأسرة، والإجهاض، والتعليم الدينى. ورغم أن المخاوف القديمة ظلت قائمة كان هناك أيضاً شعور جديد بالثقة.

وكان رمز الإحياء الأصولي هذا هو جماعة الغالبية الأخلاقية التى أنشئت عام

١٩٧٩ بقيادة جيري فولويل رغم أن الإلهام الأصلي للجماعة لم يكن مصدره الأصوليين أنفسهم بل عدداً من لجان العمل السياسي. فقد كان ريتشارد فيجنري وهاوارد فيليس وهول ويريتش قد أصابهم الإحباط من الحزب الجمهوري وشعروا بالاعتراب حتى عن رونالد ريجان الذي اختار الليبرالي ريتشارد شويكر زميلاً له في حملته الانتخابية للرئاسة. وكانوا يريدون، وهم المحافظون، خاصة بشأن قضايا مثل الدفاع وتقليل تدخل الحكومة في الاقتصاد، أن ينشئوا غالبية محافظة جديدة نجابهة الليبرالية الأخلاقية والاجتماعية التي دخلت الحياة الأمريكية العامة والخاصة في الستينيات. وكانوا قد تبينوا قوة البروتستانت الإنجلييين والأصوليين. ورأوا في فولويل ضالتهم المنشودة الذي يحقق احتياجاتهم. فقد كان لديه بالفعل جمهور انتخابي ضخم جاهز له أسسه الراسخة في كنيسته وفي كلية ليبرتي، وأيضاً جمهوره التلفزيوني. وبالمثل، كان الأصوليون الآخرون الذين قد صاروا مرموقين في جماعة «الغالبية الأخلاقية» مثل نيم لاهاي وجريج ديكسون، قد أنشئوا أيضاً كنائس «سوبر»، ويتمتعون بقدر هام من الاستقلال ولا يخشون لوماً من أية طائفة. وكان هؤلاء على اتصال وثيق ببعضهم البعض إذ إن جميعهم تقريباً، كانوا معماريين، وزملاء في جماعة «الإنجلييين المعمادين».

ولم تقصر «الغالبية الأخلاقية» نفسها على الأصوليين. فقد أراد القادة التعاون مع آخرين ممن يشاركونهم آراءهم عن القضايا الأخلاقية والسياسية ليوحدوا تجمعاً لكل المحافظين في أمريكا. ورأوا أنه إن كان للجماعة الجديدة أن تترك أثراً هاماً، فلا بد أن يدعمها من يشاركونهم الرأي من الروم الكاثوليك وأتباع الكنيسة الخمسينية Pentecostals وطائفة المورمونز واليهود العلمانيين حيث إن ١٥٪ فقط من سكان الولايات المتحدة ينتمون إلى طائفة البروتستانت الإنجلييين. ولأول مرة، وتحت إلهام الاعتبارات البرجماتية، شعر الأصوليون أنهم مجبرون على نبذ توجههم الانفصالي وترك معالقتهم واعتناق تعددية الحياة الحديثة. وانعكس هذا على القيادة إذ تكونت من الأصوليين فولويل ولاهاي وديكسون وهوب بلينجتون، وضمت يهوداً مثل هول ويريتش وكان هوارد فيليس وريتشارد فيجنري من الكاثوليك. وتسببت هذه التعددية في فقدان دعم الأصوليين المسيحيين لهم. فمشلاً أطلق هوب جونز II على فولويل صفة «أخطر رجل في أمريكا». غير أن

المساندة الشعبية لجماعة الغالبية الأخلاقية، ظل يهيمن عليها البروتستانت. وعلى المستوى الشعبي، كان التعاطف معها مركزاً في الجنوب، كما أن الحركة لم تلق سوى استجابة ضعيفة خارج نطاق الـ WASP (السكان الأنجلوساكسونيين البيض) فقد كان بإمكان الكاثوليك المحافظين تأييد موقف الغالبية الأخلاقية، من الإجهاض وحقوق المثليين والإعفاء الضريبي للمدارس المستقلة. إلا أن الكثيرين منهم لم يستطيعوا نسيان كراهية الأصوليين التقليدية للروم الكاثوليك.

ومن نفس المنطلق، كان الكثير من اليهود والمعمدانيين وأتباع الكنيسة الخمسينية Pentecostals ينفرون من التوجهات الإثنية لمعظم قادة الحركة ورعاتها. فمثلاً، كان السناتور جيس هولمز معارضاً ملتزماً لحركة الحقوق المدنية.

ولم تكن رسالة الغالبية الأخلاقية، جديدة. فقد كانت إعلاناً للحرب على المؤسسة الليبرالية ومعركة من أجل مستقبل أمريكا. فقد كان الأعضاء يؤمنون أن ثقافة أمريكا يجب أن تكون دينية وأن يُملَى الإنجيل سياستها. بيد أنها أصبحت منحلة فقد هيمنت الصفوة العلمانية التي تركزت على الشاطئ الشرقي على الحياة السياسية والثقافية بعد الحرب العالمية الثانية. وأصبح هؤلاء الليبراليون «أقلية لا أخلاقية، طبقاً لفولويل. وعلى المحافظين ألا ينظروا إلى أنفسهم على أنهم مجموعة رجعية هامشية إذ إنهم حقاً يمثلون الأغلبية، وعليهم القتال للحفاظ على القيم الموروثة. وادعى تيم لاهاي أن «هناك ملايين منا - وفقط حفنة منهم». كما أخبر بات روبرتسون جمهوراً من مستمعيه أن «لدينا أصواتاً كافية من البروتستانت والكاثوليك في هذا البلد، وستولى الأمور حينما يقول الناس إن لدينا العدد الكافي».

وبدأ بعض الأصوليين، في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، يعيدون النظر في تشاؤمهم قبل الألفى القديم. فرغم أن العالم محكوم عليه بالفناء، إلا أن على المسيحيين واجب تنصير العالم ونشر البشارة، وضمن أن تصل إلى أكبر عدد ممكن. وفي حالة اتخاذ المسيحيين الخطوات اللازمة، سيجرأ تنفيذ القضاء على العالم إلى يوم «الفصل». وفي هذا الصدد، تساءل فولويل عام ١٩٨٠ قائلاً:

«هل ثمة أمل لبلدنا في ساعة الزمن القديم للإنجيل؟ أعتقد هذا. فإننى أومن أننا

نحن المسيحيين، وعن طريق إيماننا بالله وصلواتنا، سنقود المعركة لتجريم الإجهاض الذي يعتبر قتلاً حسب الطلب، بنفس الأسلوب الذي نتخذ به موقفنا ضد ثقافة البورنو، وتجارة المخدرات، وانهيار الأسرة التقليدية في أمريكا، والإعلاء من شأن الزيجات المثلية. كما أننا نتخذ موقفاً قوياً مع الدفاع القومي كى تبقى هذه البلدة وكى يعرف أطفالنا أمريكا التى عرفناها.. وأعتقد أن هناك أمل أن يبارك الرب أمريكا مرة أخرى».

فقد اتخذ الأصوليون، من خلال ما أصبح يعرف بعد وقت قصير باليمين المسيحي الجديد، موقف الهجوم بعد خمسين عاماً من الانسحاب السلبي؛ إلا أنهم كانوا يسبحون ضد الزمن أكثر من كونهم معه. فلم يكن الجميع مرتبطين «بالغالبية الأخلاقية» أو حتى متفقين معها. إلا أن هؤلاء المسيحيين القتاليين الجدد كانوا ضد الإجهاض وضد حقوق الشواذ والمخدرات. وكانوا معارضين متشددين لأى تقارب مع الاتحاد السوفيتي الذى كانوا ينظرون إليه على أنه مملكة شيطانية. واعتقد الإنجيلي المتلفز جيمس روبيسون أن «تعليم السلام قبل عودة المسيح هرطقة.. إن هذا ضد كلمة الرب؛ إنه المسيح الدجال». وكانت أجندة «الغالبية الأخلاقية» واليمين المسيحي الجديد أجندة رفض، أو حرباً صليبية ضد شر مستطير يهدد بسحق أمريكا.

وفى ضوء ما حدث لاحقاً، فقد كان التأكيد على الجنسانية أمراً هاماً. فرغم أن اهتمام اليمين المسيحي الجديد بمركز المرأة كان مثل اهتمام الإسلاميين به، إلا أن رؤيتهم للموقف كان يحركها الرعب بدرجة أكبر كثيراً. فقد بعثت حركات تحرر النساء فى نفوس الأصوليين، رجالاً ونساء الخوف العميق. فرأى فيليس شلافلي، أحد قادة «الغالبية الأخلاقية» الروم الكاثوليك أن النسوية «مرض»، وهى سبب شروخ العالم جميعها. فمنذ أن عصت حواء الرب، وسعت إلى تحررها، أتت النسوية بالخطيئة إلى العالم ومعها الخوف والمرض والكراهية والخطر والعنف وكل أنواع القبح». ورأى التعديل الدستوري المقترح بشأن الحقوق المتساوية مؤامرة من الحكومة لفرض ضرائب أعلى، وحضانات أطفال على غرار السوفييت «وهدولة لكل أوجه الحياة الباقية». ورأت، بفرلى لاهاي النسوية «أكثر من مرض»، وأنها،

كشأن له أساسه فى الماركسية، والتعاليم الإنسانية «فلسفة للموت.. فإن التويات الراديكاليات مدمرات للذات ويحاولن أيضاً قتل ثقافة كاملة». وحث النساء المسيحيات أن يتخذن خطوات نشطة كى «يدفعن بأزواجهن إلى وسط المسرح ويعدن تثقيف أنفسهن فى التضحية بالذات الأنثوية». إذ إن من واجبهن «إنقاذ مجتمعا» والأخذ بيد «المدنية والبشرية لدخول القرن الحادى والعشرين». ومن الواضح، أن الجمع بين النسوية والشورى الأخرى التى طاردت الخيال الأصولى، هو دليل على خوف من المؤامرة، إذ إنهم ربطوا بين نقاء مجتمعهم وفرص بقائه وبين استمرار الوضع المائور التقليدى للمرأة.

وبدا الأمر وكأن الأصوليين والمسيحيين المحافظين من معظم الطوائف شعروا أن القوى الشريرة للإنسانية العلمانية قد جردتهم من رجولتهم (أخصتهم) فقد عانوا من قلق عميق من العجز الذكورى، وفى «فعل الزواج: جمال الحب الجنسى» الذى كان كتيباً جنسياً حقق أفضل المبيعات عام ١٩٧٦، تباكى تيم وبفرلى لاهى قائلين إن الرجال المحدثين أقل «يقيناً بكثير بشأن ذكورتهم عما كان عليه الأمر من قبل». فالرجال يعانون من العجز والاضطراب الجنسى، ويساورهم القلق بشأن إرضاء زوجاتهم، ودرجة جودة ممارساتهم مقارنة بغيرهم من الرجال. ويرجع هذا إلى تأكيد الذات الجديد من قبل النساء. فقد أصابت العدوى بهذا الفيروس الثقافى حتى الأصوليات منهن. ونتيجة لهذا أصبح الرجال «مخشئين أو حتى أخصياء» ويمثل هذا التوجه الطبقة التحتية لكراهية الأصوليين للمثلية، التى نظروا إليها، هى والنسوية، كوباء وسبب فى ذواء أمريكا. ورعد جيمس روبيسون، الذى أصبح مشهوراً بهجومه الشرس على المثليين فى برامجه التليفزيونية قائلاً: «إنه انحراف على أعلى مستوى ضد الرب وضد كلمة الرب وضد المجتمع والطبيعة» (والمثلية) مشيرة للاشمزاز بدرجة لا يمكن تخيلها أو وصفها». وكان الأصوليون جميعهم شبه مجمعين على تطابق المثلية مع اللواط، واعتقدوا أيضاً أنها نتيجة لانهييار العائلات التى وقعت ضحية «للإنسانية العلمانية» واجتمعت آراء الأصوليين الذين كتبوا عن القيم الأسرية أن أمريكا بحاجة إلى رجال حقيقيين. إلا أنه من المثير للاهتمام أن بعض هؤلاء الأصوليين قد دفنوا قلقهم بشأن توجه المسيحية نفسها، التى أصبحت ديانة أنثوية بتأكيداتها على الغفران والرحمة ورقة

المشاعر، إلى خصى الرجال. وفي هذا الصدد اعترض إدوين لويس كول في جداله قائلاً إن المسيح لم يكن مختبأ بل كان قائداً شجاعاً، هزم الشيطان وطرده الأرواح الشريرة وتحكم في الطبيعة وأدان المنافقين، بل إنه كان أحياناً قاسياً. كما أصر تيم لاهاي في معركة من أجل الأسرة، على وجوب أن يكون المسيحيون عدوانيين أيضاً، ويكونوا نشطاء سياسياً. وتفسر الرغبة في مسيحية ذكورية قتالية، عداء والغالبية الأخلاقية، لتشريع الحد من اقتناء المسدسات والبنادق. وكان هذا أيضاً جزءاً من حملتهم لإحياء فعولة الذكورة المستقيمة القتالية.

ويعزى توجه اليمين المسيحي نحو العمل النشط جزئياً إلى خوف أساسي. فقد تملك الأصوليين شعور مبهم بالإخفاء والتقويض العميق. فلم تتغير أيديولوجيتهم. إلا أنهم أصبحوا مصممين على جعل أتباعهم، الذين كانوا قد أمروهم لسنوات بالانعزال عن التيار العام، نشطاء سياسياً في الحياة العامة. وبدأت شبكة والغالبية الأخلاقية، تعمل كالحركات الأخرى التي توظف الحملات السياسية. وكانت مهمتهم الأساسية هي التأكد من أن أعضاءهم قد سجلوا أسماءهم في سجل الانتخابات، وعلموهم كيف يستعملون أصواتهم استعمالاً صحيحاً، وتمكنوا من الوصول إلى صناديق الاقتراع. كما نظموا تجمعات لشرح الحاجة إلى العمل النشط، ولتثقيف الناس في تنظيمات مجموعات الضغط وإعداد النشرات الدورية، وعلموهم أيضاً كيفية التأثير في وسائل الإعلام. وتم أيضاً تشجيع المسيحيين على التقدم للوظائف العامة حتى لو كانت ذات مستوى محلي متواضع. وبدأ الليبراليون والعلمانيون تدريجياً يتجهون إلى حضور أصولي صاحب ولد من جديد في الحياة العامة. وفي خلال العقد التالي، بدأ المسيحيون القتاليون في الاستيلاء على مؤسسات التيار العام. وفي عام ١٩٨٦ حاول بات روبرتسون ترشيح نفسه للرئاسة. وبالتدرج، أصبح المسيحيون شوكة في جانب بعض السياسيين. وكانت لجان العمل العام قد استهدفت، لسنوات، المرشحين للمناصب الذين يروجون للسياسات غير المرغوب فيها من وجهة نظر اليمين وأصدروا «بطاقات تقارير» للإعلان عن أفكارهم على الملأ. والآن، استهدف النشطاء المسيحيون المرشحين الذين يصوتون تصويتاً «خاطئاً» على قوانين حيازة الأسلحة، وتمويل عيادات الإجهاض، أو التعديل الدستوري الخاص بالحقوق

المتساوية. وأصبحت الآراء «الخاطئة» بشأن الدفاع والصلاة في المدارس وحقوق المثليين تعنى أن معتقديها ضد الأسرة، وضد أمريكا، وضد الرب.

ولم يكن النشطاء الأصوليون في البداية على درجة عالية من الكفاءة، إلا أنهم تعلموا تدريجياً أن يتقنوا اللعبة السياسية الحديثة. ورغم كونهم وعاظاً ومقدمي برامج تليفزيونية لا سياسيين بالسليقة، إلا أنهم أنجزوا بعض النجاح. وكانت أكثر إنجازاتهم أهمية منع صدور التعديل الدستوري الخاص بالمساواة في الحقوق. فقد كان ضرورياً لصدوره أن تصوت ثمانى وثلاثون ولاية في صالحه من أجل الحصول على الأغلبية الضرورية. وبحلول عام ١٩٧٣، صوتت ثلاثون ولاية فقط في صالح التعديل. إلا أن جهود فليس شلافلاى وحملة نشطاء اليمين المسيحي أوقفت تحرك التعديل. فقد عدلت ولايات نبراسكا وتنسى وكنتاكي وإنديانا وداكوتا الجنوبية عن تأييدها السابق. وفيما عدا هذا، لم تنجح «الغالبية الأخلاقية» في تغيير تشريع الولايات أو التشريع الفدرالى حتى بشأن قضايا مثل الصلاة في المدارس أو الاجهاض. إلا أن قوانيناً صدرت في أركنساو ولوزيانا تضمن إعطاء التدريس الحرفى للمبادئ والتعاليم الإنجيلية نفس الوقت المخصص لتدريس التطور الداروينى في المناهج الدراسية. ولم يسبب عدم النجاح الظاهر القلق للنشطاء المسيحيين الذين بينوا أن هدفهم طويل المدى هو تكوين غالبية شديدة المحافظة في المجلسين النيابيين إذ إن الإصلاحات التى يرغبونها ستنفذ كأمر طبيعى بمجرد إنجاز هذا.

وبعد عشرين عاماً من مبادرة «الغالبية الأخلاقية» النشطة سياسياً، وأثناء كتابة هذا، فليس من السهل تقييم فاعليتها طويلة المدى. فثمة شواهد على أن الملتزمين المسيحيين يصوتون في الانتخابات أكثر من ذى قبل، خاصة في الجنوب. إلا أن هذا النوع من الحملات السلبية قد يؤتى بنتائج عكسية أحياناً. فمثلاً قد يكون سبب هزيمة لندا شافير، مؤيدة اليمين المسيحي، في الانتخابات النصفية لعام ١٩٨٦ أنها دعت منافستها شيوعية وقاتلة أطفال شاذة. كما أن جهود الأصوليين وغيرهم من المحافظين لتقديم بيل كلينتون إلى المحاكمة لعلاقته الجنسية مع مونيكا لوينسكى وما نتج عن ذلك من توجيه تهمة القسم الكاذب، قد أتت أيضاً

بنتيجة عكسية. فقد تسبب مشهد الرئيس وهو مجبر على الإجابة على أسئلة خاصة وحميمة بشأن سلوكه الجنسي، وما نتج عن هذا من تنفيه حتمى للمخاطب السياسى، فى اشمزاز واسع. بل إنه من المحتمل أن يكون قد تسبب فى حدوث حركة ارتجاعية ليبرالية فى صالح كليتون.

بيد أن حقيقة شعور الرئيس بضرورة توجيه خطاب سياسى فى ذروة الفضيحة إلى القادة الدينيين فى الولايات المتحدة على الإفطار وأن يعترف باكباً أنه قد ارتكب خطيئة، برهن على عدم استطاعة السياسيين التعامل مع آراء المتدينين المخالفة بازدراء. فقد أصبح الدين، بنهاية القرن العشرين، قوة ذات اعتبار فى شمال أمريكا. وتغيرت الولايات المتحدة كثيراً منذ أن روج الآباء المنشئون لإنسانية التنوير العلمانية. وقد دأب البروتستانت الأمريكيون، منذ الثورة، على استعمال الدين كوسيلة للاحتجاج على إجراءات وسلوك المؤسسة الليبرالية، وكانت حملة جيرى فولويل ويات روبرتسون والأعضاء الآخرين فى اليمين المسيحى دليلاً على أن الأصولية مجرد تجسيد نهاية القرن العشرين لذلك التوجه. وكنيجة لكل هذه الجهود المسيحية أصبح المقدس يودى دوراً فى الحياة السياسية الأمريكية أكبر بكثير من دوره فى بلدان مثل بريطانيا وفرنسا حيث يكون السياسى معرضاً للتدمير إن هو أظهر عاطفة دينية قوية.

وبغض النظر عن السياسات القومية، فإنه من الحقيقى أن أعظم إنجازات اليمين الأمريكى فى السبعينيات والثمانينيات كانت على مستوى محلى. ففى عام ١٩٧٤، قادت أليس مور، وهى زوجة رجل دين أصولى، حملة فى إقليم كاناوا فى فرجينيا الغربية على توجه الكتب الدراسية نحو الإنسانية العلمانية التى توحي بأن الإنجيل أسطورة، وتنتقد السلطة وتقدم المسيحية على أنها نفاق والإلحاد موقف ذكى جذاب. وسحب المسيحيون أطفالهم من المدارس وطوقوها بالأوتاد. وكان تصرف مور هو إبداء لموروث أمريكى بروتستانتى من عدم الثقة فى المتخصصين، حيث تساءلت عمّن يجب عليه أن يسيطر على المدارس فى إقليم كاناوا والناس الذين يعيشون هناك، أم المتخصصين فى التربية والإداريين والأشخاص الذين ينتمون إلى أماكن أخرى والذين ظلوا يحاولون إخبارنا عما هو أفضل لأطفالنا؟

وفى يناير عام ١٩٨٢ نجح المسيحيون المخلصون فى سانت دافيد باريزونا فى حظر كتب ويليام جولدنيج وچون شتاينيك وجوزيف كونراد ومارك نوين فى مدارسهم. وفى عام ١٩٨١ بدأت مل ونورما جابلر حملة مماثلة لإعادة الرب إلى المدارس، فى تكساس، وعارضتا الميل الليبرالى، الحالى الذى يتضح فى الأسئلة ذات النهايات المفتوحة التى تتطلب من التلاميذ أن يصلوا إلى استنتاجاتهم، ومقولات عن ديانات غير مسيحية، وكتابات يؤرلونها بأسلوب يلقى سلبية على نظام المضاربات الحرة؛ وأخرى تلقى بظلال إيجابية على البلدان الاشتراكية والشيوعية (كقولهم إن الاتحاد السوفيتى أكبر منتج فى العالم لبعض أنواع الحبوب)، وأى أوجه من التربية الجنسية سوى تلك التى تعلى من شأن العفة، ومقولات تؤكد على دور السود والأمريكيين الهنود والأمريكيين المكسيكيين، أو النسويين؛ وكتابات متعاطفة مع العبيد الأمريكيين وغير متعاطفة مع أسيادهم، وأخرى تدعم نظرية التطور حيث يجب أن تعطى نفس المساحة لشرح نظرية الخلق.

وصدر حكم المحكمة ضد الأخنين جابلر، إلا أن الناشرين انزعجوا من احتمال انهيار سوق تكساس حيث إن الولاية هى التى تتخير الكتب الدراسية، وقاموا بتعديل الكتب بأنفسهم.

وقد كشف من قادوا مثل هذه الحملات عن مشاعر قلق الأصوليين من الثقافة الحديثة؛ أى الخوف من الاستعمار، ومن المتخصصين ومن عدم اليقين ومن التأثير الأجنبى والعلوم والجنس. كما أنهم كشفوا عن توجه اليمين المسيحى الجديد نحو الـ WASP أى السكان البيض الأنجلوساكسونيين. فالنسبة لهم، يجب أن تكون أمريكا بيضاء وبروتستانتية. ومثل النشطاء من اليهود والمسلمين، كان المسيحيون يقاثلون من أجل توسيع مجال المقدس، والحد من تقدم المنطق العلمانى وإعادة الإلهى ليحتل مكانه. وقد تبدو انتصاراتهم قليلة وغير هامة، إلا أن المسيحيين اليمينيين قد تعلموا أساليب المجال السياسى. فقد قاموا بإعادة منح أنفسهم حق الاقتراع، وإلى حد ما، نجحوا فى إدخال المقدس على السياسة الأمريكية بأسلوب مازال يثير دهشة الدول الأوروبية الأكثر علمانية.

وقد بينت المنظمة الليبرالية المسماة «الشعب من أجل الأسلوب الأمريكي» التي تولت قضية الأختين جابلرز في تكساس أن المحافظين قد كسبوا فقط ٣٤ من مجموع ١٢٤ معركة مماثلة. وبدأ الليبراليون في إنشاء منظماتهم الخاصة للرد على المحافظين. لذا، فقد كان تقدمهم بطيئاً، مما تسبب في قلق الأصوليين الذين اعتقدوا أن الوقت ينفد، وأن يوم «الفصل» وشيك، وأن الرب القادر نشيط في التاريخ يمد المؤمنين بعونه: لذا، اعتقد بعض الأصوليين في خيانة بعض قوادهم، فمثلاً، بدلاً من قيامهم بحملة للتحريم التام للإجهاض، تحرك فولويل نحو الهدف الأكثر برجمانية وطالب بتقييد إتاحتها. كما تحدث بات روبرتسون أثناء حملته الانتخابية بحذر وتهذيب عن طوائف التيار الرئيسي، رغم أن الأصولية البروتستانتية الأرثوذكسية تتطلب الهجوم على الكنائس المرتدة في كل مناسبة متاحة.

وخلال تلك السنوات الأولى للانبعاث البروتستانتى تعلم فولويل وروبرتسون متطلبات السياسة الحديثة لتقديم التنازلات فلا يمكن للسياسات والقرارات المطلقة النجاح في سياق ديموقراطى، حيث يقتضى الصراع على السلطة المقايضة والتسليم الجزئى للأعداء. ولا يستقيم هذا التوافق مع رؤية دينية ترى أن بعض المبادئ لا تنتهك حرمتها، ومن ثم، يستحيل التفاوض بشأنها. فليس فى عالم السياسات العلمانية، حيث يجبر الأصوليون على الصراع، شاءوا ذلك أم أبوه، ما هو مقدس بهذا الأسلوب. وكان على فولويل وروبرتسون، من أجل إنجاز أى قدر من النجاح تقديم التنازلات لأعداء كانوا ينظرون إليهم على أنهم شيطانيون. وزاد قدر التوتر. فقد وجد الأصوليون، بدخولهم إلى عالم السياسة الحديثة، أنهم ليس عليهم فقط تناول العشاء مع الشيطان، بل إن بعض الآثار الشريرة التى دخلوا إلى القوائم من أجل محاربتها قد لوثتهم. وكانت هذه واحدة فقط من مصاعبهم، وخلال العقدين الأخيرين من القرن، كانت بعض الحلول التى دُفع الأصوليون إليها، تعنى هزيمة الدين نفسه.